المكتبة الثقافية
٧٠

القاهرة القديمة وأحياؤها

الدكتورة سعاد ماهر

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول أكتوبر ١٩٦٢

المكتبة الثقافية

- اول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء ان يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع الوان المعرفة باقلام اساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى اوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

الحكم والأمثال والنصائح

عند المصريين القدماء

للأستاذ محرم كمال

١٥ أكتوبر ١٩٦٢

الثمن ٢

دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية

٧٠

القاهرة القديمة وأحياؤها

الدكتورة سعاد ماهر

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول أكتوبر ١٩٦٢

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

المقدمة

كانت ولا تزال للقاهرة مكانة ممتازة بين مدن العالم ، وهى وإن كانت قد ولدت وعاشت فى القرون الوسطى ولكنها لم تقف جامدة ، بل سارت فى موكب الزمن ولم تتخلف عن ركب الحضارة حتى الآن . ونشأت عاصمة للبلاد المصرية وظلت كذلك إلى وقتنا الحاضر ، وكانت فى عصورها المتوالية درة فى جبين الشرق . على أن الذى يعنينا الآن هو قاهرة العصور الوسطى ، أى القاهرة القديمة . ولا بد لمن يتصدى للكتابة عنها أن يتناول بالبحث والدراسة عواصم مصر الإسلامية الثلاث التى سبقت تأسيس مدينة القاهرة . وليس ذلك لمجرد السرد التاريخى والتسلسل الزمنى بل لضرورة اقتضتها طوبوغرافية قاهرة صلاح الدين التى كانت تضم تلك العواصم الثلاث .

الفسطاط

لقد جرى العرب فى فتوحاتهم على أن يؤسسوا فى الأقطار التى يفتحونها عواصم جديدة يختارون موقعها بما يتفق ومصالحهم العامة والخاصة . ففيما يتعلق بمصر نرى أنه بعد أن فتحها العرب أسس عمرو بن العاص حاضرة جديدة سنة إحدى وعشرين هجرية فى المكان الفسيح الذى يقع إلى الشمال من حصن بابليون حيث عسكرت قوات العرب للمرة الأولى ، وأسماها الفسطاط (١) . وقد وفق عمرو فى اختيار موقع المدينة أيما توفيق سواء من الناحية الجغرافية أو الحربية . فمدينة الفسطاط تقع عند رأس دلتا النيل ، وهو موقع له أهميته من الناحية الحربية والعمرانية وبذلك تكون الفسطاط فى مأمن من هجمات العدو وهى فى نفس الوقت قريبة من الأراضى الزراعية ،

(١) اختلفت الروايات في أصل كلمة « الفسطاط » فجمهور مؤرخى العرب يرجعون أصلها إلى اسطورة اليمامة المعروفة ، أما المستشرقون فيرجعونها إلى كلمة (Fastum) اللاتينية وهى الخيمة . (كتاب فتح العرب لمصر : تأليف بتلر ترجمة فريد أبو حديد ص ٢٩٤) .

الأمر الذى يسهل معه وصول المؤن والأقوات . ويحمى الفسطاط من جهة الشرق جبل المقطم فهو درعها الواقى ضد العدو وضد فيضان النيل . وقد دلّ عمرو بن العاص على بعد نظره عندما راعى فى اختياره لموقع المدينة أن يكون لها جانب يمكن أن يطرد فيه اتساعها ألا وهو الجهة الشمالية الشرقية ، التى بنيت بها مدينة العسكر والقطائع والقاهرة فيما بعد .

وما كاد عمرو بن العاص ينتهى من تأسيس مدينة الفسطاط حتى أقام فى وسطها جامعه العتيق(١) : إمام المساجد ومطلع الأنوار اللوامع ، طوبى لمن حافظ على الصلوات فيه وواظب على القيام بنواحيه(٢) . واتسعت أرجاء الجامع حتى بلغ مساحته الحالية فى العصر الأموى ، ويتوسط الجامع صحن تحيط به الأروقة من جهاته الأربع ، تهدم منها الرواقان البحرى والقبلى ، ولم يبق منهما إلا آثار الأعمدة . ويعلو الرواق الغربى إحدى

(١) جامع عمرو بن العاص بالفسطاط : محمود أحمد باشا (إدارة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٤٢) .

(٢) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ٥٩ .

مئذنتى الجامع ، أما شبابيكه الجصية فزخارفها من أجمل ما أنتجه القرن السابع الهجرى .

وقد أعيد بناء الجامع فى القرن الثالث عشر الهجرى فبنيت عقود رواق القبلة فى غير وضعها الأصلى ، فجاءت عمودية على حائط القبلة . وكانت فى الأصل موازية له ، كما هو ظاهر من بقايا هذه العقود .

وفى هذا الحقل من الأعمدة ، تكونت أول جامعة فى الإسلام ، وبلغت حلقات التدريس به فى القرن الثامن الهجرى بضعا وأربعين (١) حلقة لا تكاد تنفض منه ، كما قامت به حلقات وعظ وإرشاد للسيدات تصدرتها فى الدولة الفاطمية واعظة زمانها : أم الخير الحجازية .

وفى الطرف الشمالى لرواق القبلة يوجد ضريح يقال إنه لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، ولكن الأرجح أنه لم يدفن فى الجامع لأن محل القبة كان به منارة ، ولم يذكره أحد من الرحالة .

ويقع بيت المال (٢) فى وسط الصحن لإيداع أموال

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢٥٦ .
(٢) ابن رسته : الأعلاق النفيسة .

اليتامى[1] به . ولم يكن جامع عمرو مقصوراً على أداء الفرائض الدينية وحلقات التدريس فحسب ، بل كانت تعقد فيه محكمة لفض المنازعات الدينية والمدنية . انظر لوحة (١)

ومن حول الجامع اختطت القبائل العربية خططا لها[2] .

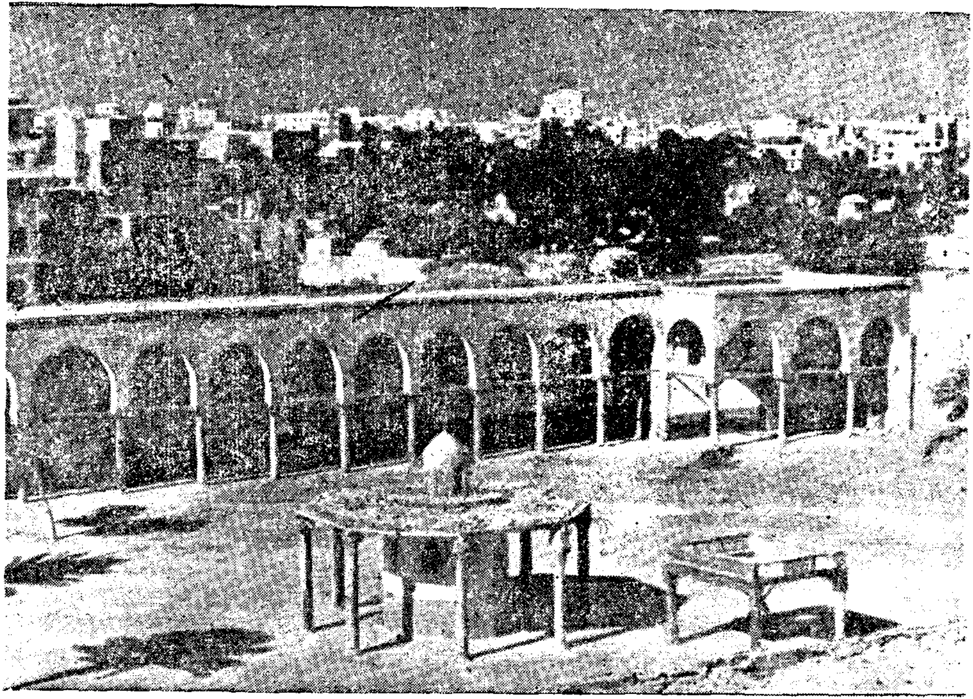
وقد أسهب مؤرخو العصور الوسطى وخاصة الرحالة منهم فى وصف مدينة الفسطاط . فقد ذكر القضاعى عن مقدار عمارتها فقال (إنه كان فى الفسطاط ٣٦٠٠ مسجد و ٨٠٠ شارع مسلوك و ١٧٠ حماما) ومهما يكن من أمر هذا التقدير وما قد يكون فيه من المبالغة فمما لا شك فيه أن فى تواتر مثل هذه التقديرات فى كثير من كتب الرحالة ما يدل على مبلغ ما وصلت إليه مدينة الفسطاط من التقدم والعمران ، وخاصة فى عهد خلفاء بنى أمية حين كانت مقراً لولاتهم .

ومما يؤسف له أنه لم يبق من مدينة الفسطاط أقدم الحواضر الإسلامية إلا هذه الأطلال الباقية الآن ، فقد حدث أن أحرقت فى القرن السادس الهجرى خشية أن يستولى الفرنجة عليها ،

---

(١) محمود عكوش : نظرة فى الآثار العربية (النشرة الزراعية سنة ١٩٤٣) .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٢٦ .



لوحة رقم (١) تبين مدينة الفسطاط (مصر القديمة الآن) يتوسطها جامع عمرو . وفى صحن الجامع يوجد مبنى مثمن الشكل مقام على أعمدة وتعلوه قبة صغيرة كان مستعملا لبيت المال ، لحفظ أموال اليتامى

وعلى الرغم من اندلاع النيران فيها أربعة وخمسين يوماً ، فإن ما بقي من آثارها يدل دلالة واضحة على ما كانت عليه من حضارة وعمران . كانت شوارعها مرصوفة مسلوكة ومنازلها فسيحة حسنة التخطيط ، تتكون من خمس طبقات أو من ست أو من سبع وربما سكن فى الدار الواحدة المائتان من الناس ، كما اشتملت على المرافق الصحية وكان بها عدد كبير من الحمامات ، تبلغ حصيلة الواحد منها يوم الجمعة خمسمائة درهم[(١)] .

ومصر التى وصفها عمرو بأنها تربة غبراء وشجرة خضراء يخط وسطها نهر ميمون الغدوات مبارك الروحات يجرى بالزيادة والنقصان ، لم يفت العرب الاهتمام بنيلها وتنظيم شئونه ، فأقاموا له فى العصر الأموى مقياساً فى جزيرة الروضة وقد أعيد بناء مقياس الروضة فى عهد الخليفة المتوكل على الله العباسى وهو البناء الذى لا يزال قائماً حتى الآن بجنوب جزيرة الروضة ، وإن كان قد جدد عدة مرات وهو الآن عبارة عن بئر مربعة الشكل فى وسطها عمود من الرخام مقسم إلى أذرع وقراريط يعلوه لوح خشبي نقشت عليه آية الكرسى ، كما زخرفت جدران البئر بشريط من الكتابة

---

(١) المقريزى : الخطط ح ٢ ص ١٢٩ .

الكوفية محفورة فى الحجر حفراً بارزاً ، وترجع إلى القرن الثالث الهجرى فهى بذلك أقدم كتابة على الآثار الإسلامية بمصر . وتتصل البئر بالنيل عن طريق ثلاثة أقباء وتنساب مياه النيل إلى أقباء المقياس فتملأ القاع وتنتقل من الأصبع إلى الذراع ، فكأنما أغار النيل على البقاع فاستقعدها وما تخطاها ، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ، ولامرغوب مرهوب إلا إياه[1] .

(١) المقريزى : الخطط حـ ١ ص ١٠٢ .

عسكر بن العباس

لما انتقلت الخلافة إلى بنى العباس ، أسسوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم الناشئة إلى الشمال الشرقى من الفسطاط فى مكان عرف فى صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى (١) ، كان يمتد إلى جبل يشكر الذى بنى عليه ابن طولون مسجده ، وفى ذلك المكان أقام العباسيون دورهم واتخذوا مسكنهم . وبنى صالح بن على دار الإمارة وثكن الجند ، ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر فى وسط المدينة .

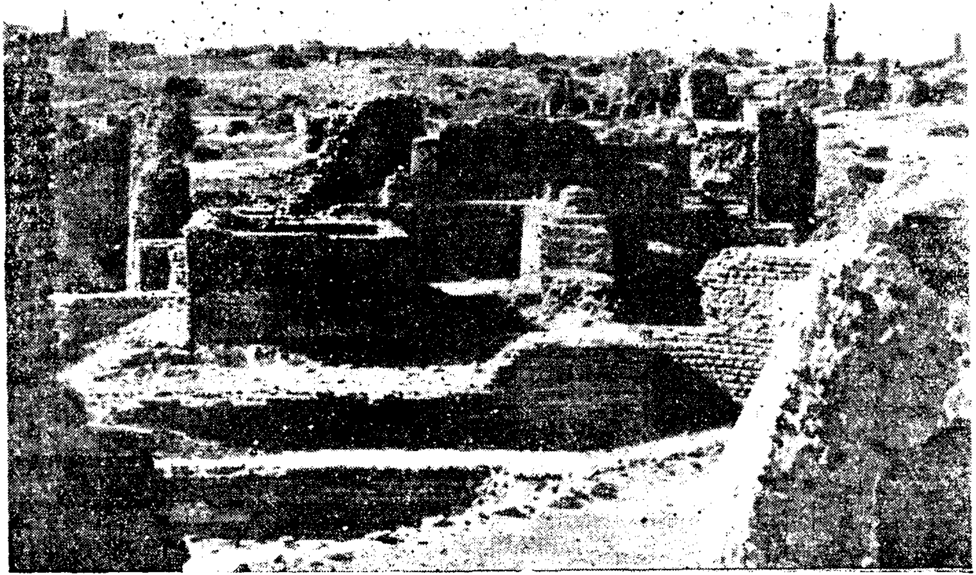
وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحت مدينة كبيرة . وقد ظل أمراء مصر يقيمون فى دار الإمارة فى العسكر حتى بنى جوهر الصقلى مدينة القاهرة . على أن ولاة العسكر لم يتركوا لنا أثراً نستدل منه على الأعمال التى قاموا بها والعمائر التى شيدوها وكل ما نعرفه عنها أنها عمرت كقاعدة رسمية لمصر الإسلامية أكثر من قرن من الزمان من سنة ١٣٣ هـ إلى سنة ٢٥٦ هـ . وقد وصف المقريزى مدينة العسكر وذكر

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٨٩ .

بإسهاب ما كان فيها من الدور والبساتين والمساجد والأسواق والحمامات . . . انظر لوحة (٢) إذ قال :

وبادوا فلا مخبر عنهم   وماتوا جميعاً وهذا الخبر
ومن كان ذا عبرة فليكن   فطينا ففى من مضى معتبر
وكان لهم أثر صالح   فأين هم ثم أين الأثر ؟



لوحة رقم (٢) أطلال مدينة العسكر ، التى تقع إلى الشمال من مدينة الفسطاط (مصر القديمة الحالية)

قطائع بن طولون

لما ضاقت الفسطاط بساكنيها أسس أحمد بن طولون مدينة القطائع سنة ٢٥٦هـ وأقام فى وسطها مسجدا جامعا تمت عمارته فى منتصف القرن الثالث للهجرة ويعد من أكبر مساجد العالم الإسلامى ، إذ تبلغ مساحته مع الزيادة أى الفضاء الذى يحيط به من جميع جهاته عدا جهة القبلة ستة ونصفاً من الأفدنة . وهو من الجوامع المعلقة إذ يصعد إلى أبوابه بدرجات دائرية الشكل . ويتوسط الجامع صحن مربع يحيط به رواقان فى كل من جهاته الثلاث وتتكون الأروقة من دعائم مبنية من الطوب ، وفى أركانها أعمدة متصلة نقشت تيجانها بأشكال مختلفة ، وتحمل الدعائم عقودا غطيت بطبقة جصية غنية بزخارفها الجميلة المتنوعة . ويتكون رواق جهة القبلة من خمسة أروقة وبه خمسة محاريب غير مجوفة عدا المحراب الرئيسى المجوف ، وجميعها من الجص مزخرفة بزخارف نباتية وهندسية وكتابية غاية فى الدقة والجمال ، وترجع إلى عصور متعددة اثنان منها فى الرواق الثانى مما يلى الصحن الأيمن وعليه اسم الخليفة

المستنصر بالله الفاطمى ، والأيسر تقليد للأيمن وعليه اسم السلطان لاشين ، واثنان على جانبي دكة المبلغ الأيمن ويرجع إلى العصر الطولونى والأيسر إلى العصر الفاطمى كما يوجد على يسار المحراب الكبير محراب السيدة نفيسة ويرجع إلى القرن السابع الهجرى . ويوجد بهذا الإيوان جزء كبير من لوحة التأسيس التذكارية مكتوبة بالخط الكوفى البسيط .

وقد زخرف تجويف المحراب الرئيسى المجوف بالفسيفساء المذهب وكتب بها بالخط الكوفى « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . وترجع الفسيفساء والمقرنصات التى تعلو المحراب وطاقيته الخشبية إلى القرن السابع الهجرى .

وعلى يسار المحراب الرئيسى منبر خشبي مزخرف على شكل أطباق نجمية مكونة من وحدات مجمعة مطعمة بأجود الأخشاب ومزخرفة بزخارف غاية فى الدقة والروعة والجمال .

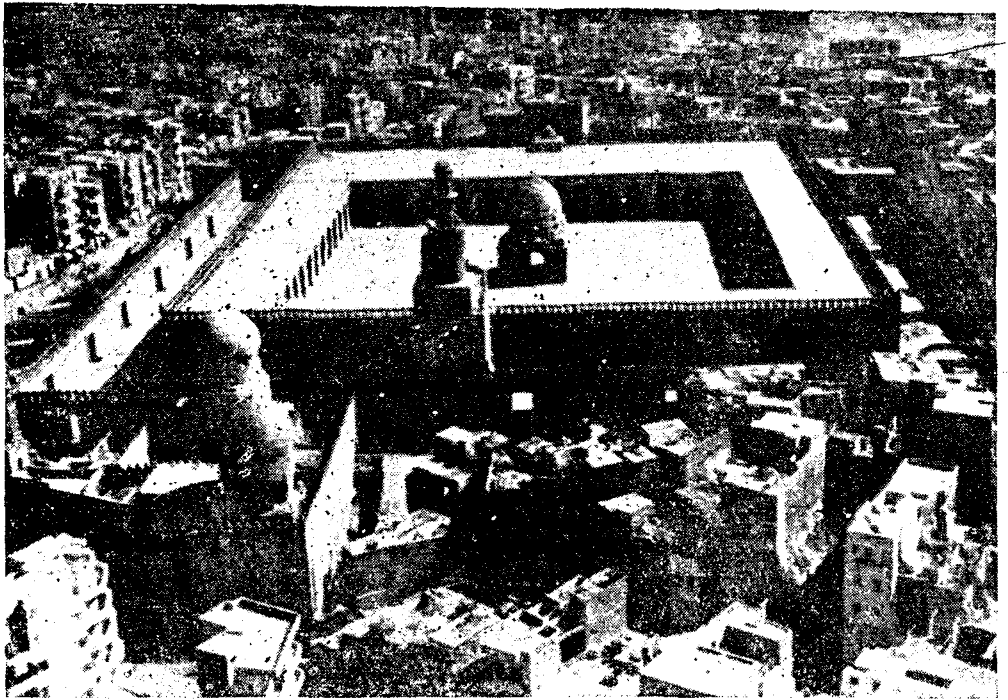
أما شبابيك الجامع فتحيط به من جهاته الأربع وتبلغ مائة وثمانية وعشرين شباكا من الجص المفرغ فى أشكال هندسية جميلة ، أربعة منها ترجع إلى عهد إنشائه . أما العقود فيعلوها إفريز من الجص المزخرف يعلوه إزار خشبي يحيط بأروقة الجامع ، وقد نقش فيه بالخط الكوفى البارز سورتا آل عمران

والبقرة « أ ل م ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » .

وفى وسط الصحن قبة كبيرة ترتكز على أربعة عقود يحيط بها شريط كتابى « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط ، أولا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » .

وتقع المئذنة فى الزيادة الغربية ، وتعتبر الوحيدة فى مصر ذات السلم الخارجى وهى مكونة من أربع طبقات الأولى مربعة ، والثانية مستديرة ، والطبقة الثالثة على شكل مثمن أما الطبقة الرابعة فتعلوها طاقية مضلعة تكون معها شكل مبخرة . أما السبيل فقد أنشىء فى القرن السابع الهجرى ويقع فى الزيادة القبلية . انظر لوحة (٣) .

وتعتبر مدينة القطائع أول مدينة ملوكية أنشئت فى وادى النيل فى العهد الإسلامى ، إذ كانت مقر حاكم مستقل استقلالا



لوحة رقم (٣) مدينة القطائع يتوسطها جامع ابن طولون

تاما لا يربطه بالخليفة العباسى ببغداد غير التبعية الدينية .

وقد تأثر أحمد بن طولون عند تأسيسه للعاصمة الجديدة بتخطيط مدينة سمارا التى نشأ فيها ابن طولون قبل مجيئه إلى مصر . فقد كانت كل منهما مقسمة إلى خطط أو قطائع تضم كل قطيعة منها جماعة من السكان[1] تربط بينهم رابطة الجنس أو العمل ، ومن ثم أصبح اسم القطائع علما على مدينة ابن طولون ، وقد كان هذا الاسم يطلق فى سمارا على كل أحياء المدينة فيما عدا القصور الملكية[2] .

وكان طراز العمارة والزخرفة الذى اتبع فى المبانى العامة والخاصة بمدينة سمارا قد انتقل أيضا مع ابن طولون إلى مصر ، وتشهد بذلك الزخارف الجصية الباقية حتى الآن فى الآثار الطولونية[3] . وإن كانت هذه الظاهرة الفنية لم تزدهر فيما يختص بالزخارف الجصية ولم تعمر طويلا بعد ابن طولون ، ولكنها استمرت فى زخرفة الأخشاب حتى أوائل العصر الفاطمى .

---

(١) المقريزى : الخطط حـ ٢ ص ١٠٦ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة حـ ٣ ص ١٥ .

(٢) زكى حسن : الفن الإسلامى فى مصر حـ ١ ص ٥٨ .

(٣) الفصل الخاص بالفن الطولونى من كتاب زكى محمد حسن، Les Tulunides (Paris 1933)

قاهرة المعز *

لله قاهرة المعز فإنها ... بلد تخصص بالمسرة والهنا
أو ما ترى فى كل قطر منية ... من جانبيها فهى مجتمع المنى

أسس جوهر الصقلى قائد جيوش الخليفة الفاطمى المعز لدين الله مدينة القاهرة سنة ٣٥٩هـ بعد استيلائه على مصر[1] بعام، وبنى حولها سوراً من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة . وكانت مساحة الأرض التى حددها السور تبلغ ٣٤٠ فدانا . وفى وسط هذه المساحة بنى جوهر قصرا كبيرا بلغت مساحته ٧٠ فدانا وجعل خمسة وثلاثين فدانا للبستان الكافورى ومثل هذه المساحة الميادين ، والباقى وقدره مائتا فدان وزعت على الفرق العسكرية فى نحو عشرين

(*) ابن حوقل . المسالك . هو أقدم كتاب من كتب الجغرافيا ورد فيه اسم القاهرة لأول مرة بعد إنشائها بسبع سنوات .

(١) المقريزى : حـ ٢ ص ١٧٩ . وورد فى النجوم الزاهرة حـ ٤ ص ٣٤ ، أن جوهر اختط القاهرة سنة ٣٥٨ هـ ، وكذا فى الانتصار لابن دقاق ، وكذا فى كتاب الروضة البهية لابن عبد الظاهر .

خطة(١) . كما أنشا مسجدا بالقرب من قصر الخليفة . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية كالآتى :

يحدها شرقا جبل المقطم وغربا الخليج الذى كان يخرج من النيل إلى الجنوب قليلا من فم الخليج وينتهى عند خليج السويس — ومكانه شارع الخليج (بور سعيد الآن) . ويحدها جنوبا خط يمتد من ميدان باب الخلق ويتجه شرقا مارا بباب زويلة وينتهى عند جبل المقطم ، أما حدودها الشمالية فتبدأ عند الجهة الغربية من ميدان باب الشعرية متجهة شرقا إلى باب الفتوح فباب النصر وتنتهى عند جبل المقطم(٢) . ولم يكن قصد جوهر الصقلى من إنشائه مدينة القاهرة فى بادىء الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة ، بل لتكون سكنا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه(٣) ، فنشأت القاهرة مدينة متواضعة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حينا بعد قيامها مدينة ملكية عسكرية ، تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ، ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح ، ثم أصبحت بعد

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٨١ .
(٢) Cres well. The fourdation of Cairo. p. (26)
(٣) المقريزى : جـ ٢ ص ١٨٤ .

إنشائها بأربع سنوات أى فى سنة ٣٦٢ هـ — عاصمة الخلافة الفاطمية حين انتقل المعز وأسرته من المغرب واتخذ مصر موطنا له . ولم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوا (المدينة الملكية) إلا بعد أن يؤذن لهم . وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويسيرون نحو القصر بين صفين من الجنود على النحو المتبع فى البلاط البيزنطى . وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن شعبه[1] . ولكن سرعان ما اتسعت المدينة الناشئة ونمت نموا ملحوظا وتبوأت مكانتها المرموقة فى ظل الخلفاء الفاطميين واتصلت مبانيها بمبانى مدينة الفسطاط وصارتا تؤلفان معا أكبر المدن الإسلامية فى العصور الوسطى .

ومن أهم معالم الفاطميين الباقية حتى اليوم الجامع الأزهر ، الذى يعد أول عمل فنى معمارى أقامه الفاطميون فى مصر ولا يزال قائما حتى اليوم . ويقع الأزهر فى الجنوب الشرقى

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم : وهو ثانى الكتب التى ورد فيها اسم القاهرة ، حيث ذكرها بعد إنشائها بسبع عشرة سنة فقال : القاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمى لما فتح مصر وهى كبيرة حسنة وبها جامع بهى وقصر السلطان وسطها .

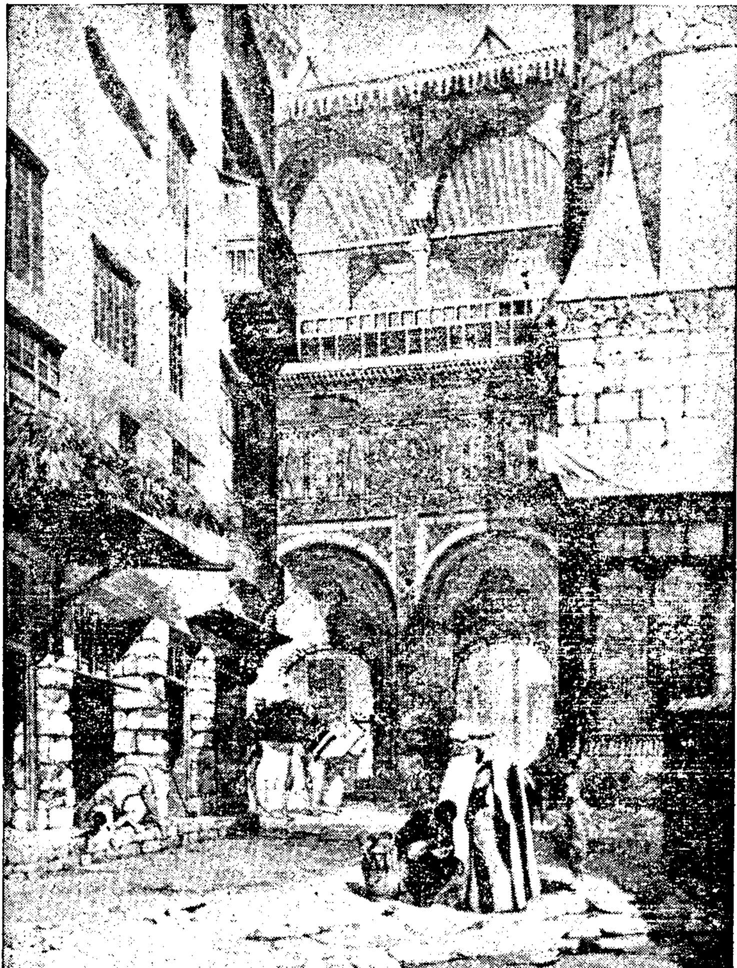
من قاهرة المعز[1] . على مقربة من القصر الكبير الذى كان موجودا حينذاك بين حى الديلم وحى الترك فى الجنوب .

وقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بناء هذا المسجد وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه خلال القرون الماضية ، كما أضيف إليه زيادات عدة ، مما جعل كل ذلك معرفة التخطيط الأصلى للجامع تعتبر من الأمور الصعبة التى يتعذر الاهتداء والاطمئنان إليها . انظر لوحة (٤) .

وإذا كان الجامع لا يزال يحتفظ ببقية من النقوش والكتابات الكوفية والعقود الفارسية التى تعد من مميزات العمارة الفاطمية ، فإن كل أجزائه الحالية من عصور متأخرة . بقى الأزهر يشغل المكانة الرفيعة فى العالم الإسلامى ، فقد كان منار العلم وموئل المتعلمين حتى جاءت الدولة الأيوبية فبدأ نجمه فى الأفول ، فقد عمل الأيوبيون على محاربة الشيعة ونشر المذهب السنى ، ومن ثم أبطلت الخطبة من الجامع الأزهر واكتفى بإقامتها بجامع الحاكم عملا بالمذهب الشافعى ، وظل الحال على ذلك مدة قرن من الزمان حتى العصر المملوكى .

---

(١) سليمان رصد الحنفى : كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ص ٢٢ وما بعده .



لوحة رقم (٤) المدخل الرئيسى لجامع الأزهر فى عام ١٨٤٠ ·
ويعرف هذا المدخل باسم باب المزينين

أنشىء الجامع الأزهر ليكون مسجدا رسميا للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ومقرا لدعوتها الدينية ورمزا لسيادتها الروحية . أما فكرة الدراسة بالأزهر ، فقد كانت حدثا عارضا ترتب على فكرة الدعوة المذهبية . وغلب الحدث العارض شيئاً فشيئا على صفته الأولى حتى أسبغ عليه ثوبه الجامعى الخالد . وإلى جانب المكانة العلمية التى كان يتمتع بها الأزهر ، كانت له فوق ذلك أهمية رسمية خاصة ، ففيه كان جلوس قاضى القضاة فى أيام معينة وفيه مركز المحتسب العام ، وفيه كان يعقد كثير من المجالس الخلافية والقضائية .. على أن قطع خطبة الجمعة من الجامع الأزهر فى العصر الأيوبى لم يبطل صفته الجامعية ، فقد لبث محتفظا بصفته كمعهد للدرس والقراءة .

ويعتبر العصر المملوكى العصر الذهبي للأزهر من حيث الإنتاج العلمى الممتاز ومن حيث تبوؤه مركز الزعامة ، وكان الفتح العثمانى أقسى ضربة أصابت المدنية الإسلامية ، فمنذ قضى التتار على الدولة العباسية فى القرن السابع الهجرى فأصاب الأزهر ما أصاب الحياة الفكرية كلها من الانحلال والتدهور ، إلا أنه استطاع أن يغدو ملاذا أخيرا لعلوم الدين والفقه ومعقلا حصينا للغة العربية ، وربما كانت هذه الرسالة السامية التى ألقى القدر

زمامها إلى الجامع الأزهر فى تلك الأوقات العصيبة فى حياة مصر والعالم الإسلامى بأسره ، هى أعظم ما أدى الأزهر من رسالته ، وأعظم ما وفق لإسدائه لعلوم الدين واللغة خلال تاريخه الطويل الحافل .

ومن الآثار الفاطمية الهامة أيضا جامع الحاكم الذى عرف أولا بجامع الخطبة وقيل له جامع الأنوار ، أسسه الخليفة العزيز بالله وأتمه ابنه الحاكم بأمر الله . ويعتبر جامع الحاكم تحفة فنية نادرة من العصر الفاطمى . وكما طرأت على الأزهر تغييرات كثيرة ، فقد طرأ على هذا الجامع أيضاً ، تغيرات كثيرة غير أنه احتفظ بالكثير من تصميمه الأصلى .

أما باقى المساجد الفاطمية التى ما تزال باقية حتى اليوم بالقاهرة فهى كثيرة نذكر منها الجامع الأقمر بشارع المعز لدين الله بالنحاسين وجامع الصالح طلائع تجاه باب زويلة وجامع الفكهانى على رأس حارة حوش قدم بالغورية وجامع الجيوشى بأعلى المقطم وكذا مشهد إخوة يوسف بقسم الخليفة ومشهد السيدة رقية بشارع الخليفة .

وأما السور الذى أقامه جوهر حول المدينة لحمايتها من هجمات أعداء الفاطميين وخاصة القرامطة(١) . فقد اندثر ولم يبق منه

(١) المقريزى . جـ ٢ ص ١٧٩ .

شيء . ولكننا نستطيع اعتمادا على ما جاء فى كتب المؤرخين وعلى الأبحاث التى قام بها علماء الآثار أن نعين موقعه ولو بالتقريب .

كان جوهر قد فتح ثمانية[1] أبواب فى السور وجعل فى كل ضلع من أضلاع السور بابين . ففى الضلع الشمالى يقع بابا النصر والفتوح ، (وهما غير البابين الموجودين الآن فى سور بدر الجمالى الذى سيأتى الكلام عليه فيما بعد) . وكان باب النصر يقع عند تقاطع شارع بين السيارج من الجهة القبلية بشارع المعز ، على بعد نحو ٢٠ مترا إلى شمالى جامع الشهداء المعروف باسم وكالة قوصون بشارع باب النصر تجاه زاوية القاصد بين مدخل جامع العطوف وجامع الشهداء .

وفى الضلع الشرقى من السور فتح جوهر بابى البرقية والقراطين . وكان باب البرقية ، كما يتضح من خريطة الحملة الفرنسية ، يقع تحت تلال البرقية المقابلة لشارع الدراسة . وينسب هذا الباب إلى جماعة من الجنود أتوا من برقة مع جيش جوهر فى حملته لفتح مصر . أما باب القراطين فكان يقع بالقرب من باب

(١) النجوم الزاهرة حـ٤ ص ٣٨ ، ٣٩ ، المقريزى حـ٢ ص ٢٠٩ إلى ٢١٤ .

المحروق الحالى فى نهاية شارع درب المحروق بقسم الجمالية .

ويقول المقريزى[1] إن الباب المحروق عرف بهذا الاسم لأن المماليك أحرقوه سنة ٦٥٢ هـ عندما علموا بقتل عميدهم الأمير اقطاى ، وكانوا قد حاولوا الخـــروج منه ليلا وكان مغلقا كما هى العادة فى ذلك الوقت، فأوقدوا فيه النار حتى سقط من الحريق وخرجوا منه ، ومنذ ذلك الحين عرف باسم الباب المحروق .

وفى الضلع الجنوبى كان يوجد بابا زويلة ، نسبة إلى قبيلة من البربر بشمال إفريقيا انضم جنودها إلى جيش جوهر لفتح مصر ، وكان موضع البابين يقع عند مسجد ابن البناء . ويقول الأستاذ محمد بك رمزى فى تعليقاته على كتاب النجوم الزاهرة : « إن مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشارع المعز لدين الله وتسميها العامة زاوية سام بن نوح ، وقد بنى المسجد المذكور الحاكم بأمر الله » . وقد أزيل بابا زويلة الأصليان وبنى بدر الجمالى بدلهما باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم ، وتسميه العامة بوابة المتولى حيث كان يجلس فى مدخله متولى حسبة القاهرة : أى متولى تحصيل ضريبة الدخولية إلى القاهرة .

(١) المقريزى : حـ٢ ص ٢١٣ .

أما الضلع الغربى وهو الضلع الموازى لخليج أمير المؤمنين ، فقد فتح فيه بابا سعادة والقنطرة . وينسب باب سعادة[1] إلى سعادة بن حيان غلام المعز لدين الله واحد قواده ، وكان يقع على بعد عشرة أمتار شمالى محكمة الاستئناف (مبنى إدارة الحكم المحلى الآن) . أما باب القنطرة[2] فكان يقع على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى وقد عرف بهذا الاسم لأن جوهرا بنى هناك قنطرة فوق الخليج المصرى سنة ٣٦٠هـ لكى يمر فوقها الجيش إلى ميناء المقس لرد غارات القرامطة ... وقد سمى العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية ، فى حين أن باب الشعرية كان يوجد غرب الخليج ، ولعل هذا الخطأ جاء كما يقول المقريزى من وجود قنطرة بالقرب من هذا المكان كان اسمها قنطرة باب الشعرية .

ولم يكتف جوهر بإحاطة المدينة بسور ولا بإقامة مسجد الأزهر فى وسطها ، بل أقام أيضاً فى الوقت نفسه وبالقرب من المسجد قصرا كبيرا هو القصر الشرقى . إذ وضع أساس هذا القصر (القصر الكبير[3] الشرقى) ليلة إرسائه أساس سور

(١) صبح الأعشى : حـ ٣ ص ٣٥٠ ، المقريزى حـ ٢ ص ٢١٣ .
(٢) المقريزى : حـ ٢ ص ٢١٣ ، صبح الأعشى : حـ ٣ ص ٣٥ .
(٣) المقريزى : حـ ٢ ص ٢١٥ .

مدينة القاهرة . واستمر العمل فيه أربع سنوات حتى قبيل وصول الخليفة المعز . ويقال إن هذا القصر كان يحتوى على أربعة آلاف حجرة بها كثير من الأثاث والرياش والجواهر والحلى والأوانى والثياب والسلاح . وكان هذا القصر فى الواقع مجموعة هائلة من القصور الملكية تجمعت كلها داخل مبنى واحد . ولما تولى العزيز بالله بن المعز الحكم بنى القصر الصغير الغربى وجعل بين القصرين ميدانا فسيحا يسع عشرة آلاف جندى . وقد بلغت مساحة الأفنية الداخلية والحدائق والطرقات المسقوفة والممرات السفلية وغيرها من ملحقات القصرين مايقرب من سبعين فدانا. وقد أسهب مؤرخو ورحالة العصور الوسطى فى وصف هذه القصور من الناحية المعمارية وما تحتويها من أثاث ورياش وصفا يقرب من الخيال ، وعلى رأس هؤلاء المقريزى ؛ وناصر خسرو الرحالة الفارسى ؛ وغليوم رئيس أساقفة مؤرخى الحروب الصليبية ؛ ومن المؤرخين الأجانب جوستاف شلمبرجية ولين بول وغيرهم كثير ممن لا يتسع المجال لذكرهم .

ومما يؤسف له أن هذه القصور قد اندثرت بسرعة نتيجة للتفتت السياسى الذى تعرضت له عقب سقوط الدولة الفاطمية على أيدى الأيوبيين أتباع المذهب السنى المناهض لمذهب

الفاطميين الشيعيين . فقد أزيل القصر الشرقى الكبير وأقيم مكانه المدارس الصالحية والظاهرية(1) وسبيل محمد على (مدرسة النحاسين) وقصر بشتاك وقسم الجمالية وما حوله ، وتقع معظم هذه المبانى الآن فى شارع المعز لدين الله . أما القصر الغربى فقد حل محله جامع المنصور قلاوون وابنه الناصر والظاهر برقوق والمدرسة الكمالية حتى الخرنفش(2) ، وقد عثر فى هذه المبانى المملوكية التى ما تزال قائمة حتى اليوم على مجموعة كبيرة من الأخشاب أخذت من القصور الفاطمية ، وتحتوى هذه الأخشاب على نقوش بارزة تمثل حفلات رقص وطرب وحلبات قنص وصيد وطيور وحيوانات ، وهى بذلك تحكى قصة الحياة الاجتماعية فى العصر الفاطمى .

ويذكر لنا الرحالة ناصر خسرو أنه عندما وفد إلى مصر فى عهد الخليفة المستنصر سنة ٤٣٩ هـ ليلتحق بدار الحكمة ، وكانت جامعة مدنية وفلسفية أنشأها الحاكم بأمر الله ملاصقة للقصر الغربى الصغير ، وجد أن سور جوهر الذى أنشىء سنة ٣٥٨ هـ كان قد تهدم ، أى بعد إنشائه بثمانين عاما تقريبا .

(1) المقريزى : جـ ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .
(2) المرجع السابق .

ولذا لم يكن للقاهرة فى أول عهد المستنصر أسوار ، ولذلك فقد كان أول ما قام به بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر من أعمال جليلة هو تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية وضد ثورات الجند الداخلية فأحاطها بسور سنة ٤٨٠ ، بعد أن اندثر السور الأول الذى بناه جوهر . ويمكننا تعيين سور بدر الجمالى اعتمادا على بقاياه التى ما تزال تحتل مكانها الأصلى وهى الأبواب الثلاثة: باب النصر والفتوح فى الشمال ، وباب زويلة فى الجنوب . وهى تعد من أروع الأمثلة للاستحكامات الحربية فى العصور الوسطى .

ويتكون باب الفتوح(١) من برجين مستديرين مصمتين إلى ثلثيهما ، أما الثلث العلوى فيحتوى على غرف للجند وفتحات لرمى السهام ، ويتوسط البرجين مدخل معقود تعلوه فتحة تصب منها السوائل الكاوية على العدو المقتحم . أما باب النصر فيتكون من برجين مربعين نقش عليهما فى الحجر أشكال تمثل بعض آلات الحرب من تروس ودروع . ويتوسط البرجين باب مرتفع جعلت به فتحة تصب منها المواد المحرقة على كل من يحاول اقتحام الباب ؛ والبرجان مصمتان إلى ثلثيهما ، يجىء بعدها شريط من الكتابة بالخط الكوفى المزهر يبين اسم المنشىء وتاريخ الإنشاء وفوق ذلك أفريز تعلوه

(١) Greswell : The Muslim Architecture of Egypt.

المزاغل . ويتصل باب النصر بباب الفتوح بطريقين : أحدهما من ظهر السور والآخر من داخله ، والطريق عبارة عن ممر مغطى بقباء وعلى جانبيه مزاغـل وحجرات مغطاة بأقباء متقاطعة أو بقباب .

ويعتبر باب زويلة أجمل الأبواب الثلاثة وأروعها ، وهو يتكون من برجين مستديرين مصمتين إلى ثلثيهما ، وهو من هذه الناحية يشبه إلى حد كبير باب الفتوح ؛ وقد هدم أعلى البرجين الملك المؤيد أبو النصر شيخ سنة ٨١٨ هـ عند ما بنى مسجده بجـوار الباب وأقام مئذنتى المسجد على البرجين .

ويقال إن هذه الأبواب الثلاثة قد أشرف على بنائها ثلاثة إخوة قدموا من الرها .

أما عن الحياة الاجتماعية بالقاهرة فى العصر الفاطمى ، فقد كانت حياة رخاء ومرح وصخب ، فقد بلغ البذخ الفاطمى حدا فاق كل وصف وأصبحت القاهرة فى نهاية عهدهم أى بعد حوالى مائتى عام من تاريخ تأسيسها مدينة كبيرة غاصة بالمنازل والأسواق والملاهى والمساجد والمشاهد والقصور والمناظر ، ولعل ماخلفوه من عمائر وكنوز خير شاهد على ذلك .

قاهرة صلاح الدين

حكمت مصر للأيوبيين نحوا من ثمانين عاما ، ازدانت فيها القاهرة بأجمل العمارات وأدق الفنون الإسلامية ، وإن كان معظم هذه الآثار قد اندثر الآن ، إلا أن الباقى منها يعطينا فكرة واضحة عن مدى تقدم الفنون فى هذه الدولة وعن التأثير المعمارى الذى تركته فى عمائر الدول التى أعقبتها . ففى هذا العهد ظهرت بمصر المدارس المذهبية بتفاصيلها المعمارية المتعامدة ، كما كثرت المبانى الحربية مثل القلاع والأسوار المحصنة ، والمبانى العمرانية مثل قناطر الجيزة (١) .

وعلى الرغم من قصر الفترة التى قضاها صلاح الدين فى القاهرة ، فإن ما تركه من آثار ليشهد بما كان عليه هذا القائد العظيم من بعد النظر والحنكة السياسية والدراية العسكرية مما خلدت اسمه على مر الزمن (٢) . ومن أهم هذه الآثار قلعة الجبل التى أراد أن يحمى بها مدينة القاهرة إذا ما اعتدى عليها معتد ، فاختار لها مكاناً مرتفعاً . شرق العاصمة ، وعلى صخرة مفصولة

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ١ ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبى وعصره ص ٦٧ .

من جبل المقطم ، بنى صلاح الدين قلعته التى عرفت بقلعة الجبل ، وكان الغرض المباشر من بناء هذه القلعة هو أن تشرف على عاصمته الجديدة ، وأن يتخذ منها مقرا لملكه الجديد . وقد أنشئت القلعة فى البقعة التى كانت بها قبة الهواء[1] ، التى بناها العباسيون فى القرن الثانى الهجرى ، وقد أمر صلاح الدين أن يبنى فيها قصر لسكنه الخاص ، كما أمر أن تطهر بئر يوسف[2] لتغذية القلعة وملحقاتها بالماء فى حالة الحرب أو الحصار .

وقد عهد بهذا العمل إلى وزيره الأمير بهاء الدين قراقوش الذى عهد إليه أيضاً ببناء السور ، ولكن صلاح الدين توفى قبل إتمام بناء القلعة ، وتمت فى عهد السلطان العادل شقيق صلاح الدين .

وقد اتخذت القلعة منذ ذلك الحين دارا للملك حتى عصر إسماعيل سنة ١٨٥٠ م حيث نقل إلى قصر عابدين ، هذا وقد طرأت على مبانى القلعة تغييرات وإضافات متعددة .

ولقد كان للحروب الكثيرة التى خاضها صلاح الدين أثر كبير فى المنشآت التى تمت فى عهده ، فإنه بعد أن أنشأ قلعة الجبل ، أراد أن يحصن البلاد فأحاط عواصم مصر الإسلامية الأربع

(١) المقريزى حـ٣ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٢) النجوم الزاهرة حـ٤ ص ٤٠ ، المقريزى : حـ٣ ص ٣٣٢ .

السابقة وقلعة الجبل بسور واحد يمتد من قاهرة الفاطميين شمالا إلى منطقة أثر النبي جنوب مدينة الفسطاط ، ولا تزال أجزاء كثيرة منه باقية حتى الآن — وخاصة من الجهة الشرقية والجنوبية . ويرجع إلى صلاح الدين الأيوبى فضل إنشاء المدارس المذهبية على غرار المدارس التى انشأها نور الدين زنكى فى الشام . . وكان الغرض الأساسى من إنشاء تلك المدارس هو مناهضة المذهب الشيعى الذى كان سائدا فى العصر الفاطمى ، وذلك بنشر المذاهب السنية الأربعة . ويختلف تخطيط المدرسة اختلافا بينا عن تخطيط المسجد ، فتتكون المدرسة من أربعة أيوانات متعامدة تحيط بصحن صغير بوسطه ميضأة فى غالب الأحيان ويدرس بكل إيوان مذهب من المذاهب الأربعة . وفى معظم الأحيان كان الأساتذة والطلبة يسكنون فى هذه المدارس فى أماكن مخصصة لهذا الغرض كما كان يوجد بها قاعات للمكتبة والمحضرات وغيرها .

ومن العمائر الدينية التى يرجع تاريخ إنشائها إلى العصر الأيوبى قبة الإمام الشافعى التى اشتملت على تفاصيل معمارية هامة تعتبر أساسا نسج على منواله وخاصة فى زخرفة القباب من الداخل ، إذ تعددت حطات مقرنصاتها ، كما زينت بالزخارف النباتية والهندسية بأسلوب خاص بهم .

قاهرة المماليك البحرية

لقد حكم سلاطين المماليك البحرية مصر قرابة قرن ، وعلى الرغم مما اتصفوا به من ظلم وتعسف ، وماشاب عهدهم من كثرة الدسائس والمكائد فإنه مع ذلك يعتبر صفحة زاهرة فى تاريخ القاهرة الفنى ، فقد كانوا جميعاً من محبى الفنون الجميلة ، وآية ذلك واضحة فى عمائرهم ومبانيهم الدينية والمدنية على السواء ، بل فى لباسهم وفراشهم . وقد حفظت لنا متاحف العالم وكذا المجموعات الخاصة الكثير من التحف والألطاف التى تبين مبلغ ما وصلت إليه مدينة القاهرة من ذوق سليم ورفاهية بالغة يعز على أرقى الدول وأغناها فى العصر الحالى أن تدانيها فيه .

أما عن المبانى والعمائر فقد احتفظت القاهرة بالكثير منها . فهناك مجموعة كبيرة من المساجد التى تناطح مآذنها السحاب مثل مساجد قلاوون والناصر بن قلاوون ومساجد برقوق والمؤيد والأشرف قايتباى ، ومسجد الظاهر ومدرسته وغيرها كثير . وإذا كان لمصر الفرعونية أن تفاخر بأهرامها فإن لمصر الإسلامية أن تتيه إعجابا بمدرسة السلطان حسن التى لا يعادلها بناء آخر فى الشرق بأجمعه .

وهذه العمائر يختلف بعضها عن بعض فى تفاصيلها الهندسية وزخرفتها المعمارية وليس من السهل أن نضع لها وصفا واحدا شاملا فكل جامع أو مدرسة أو خانقاه مما ذكرت تستحق وصفا مستقلا ودرسا خاصا ، وإن كانت قد تتفق فى ظاهرة أو مزية واحدة .

وهناك فارق بين هذه العمائر وبين أمثالها مما شيد قبلها . فبينما نجد المساجد والعمائر الدينية السابقة لهذا العهد تمتاز بالبساطة وخلوها من الزخرف من الخارج ، نجد فى عمائر العصر المملوكى ، ازدحام واجهاتها بالأفاريز والكرانيش والتيجان وغيرها من مميزات الزخرفة المعمارية . أما مآذن هذه المبانى فقد أصبحت أدق وأرشق مما كانت عليه ، إذ بنيت من الحجر المنحوت وتحولت قاعدتها المربعة إلى قاعدة مثمنة ثم إلى أسطوانة زخرف خصرها بشرافات زادتها فتنة وبهاء ، وكذلك امتازت عمائرهم بكثرة استعمال القباب والقبيبات الصغيرة فوق المحراب والمدخل . وتطور القبة البسيطة إلى قبة أخرى تعلوها قبيبة مقسمة إلى فصوص ، ثم إلى القبة المزخرفة من الخارج برسوم هندسية وبنائية متداخلة غاية فى الدقة والإبداع وكلها منحوتة على الحجر .

وتمتاز مبانى العصر الناصرى باستعمال أحجار من لونين

فى الوجهة وهذه الطريقة تعرف باسم (الأبلق) ، وزيادة فى الفخار والعظمة استعمل فيها الرخام الأبيض والأسود . كما زخرفت الواجهات بالكتابات العربية المزخرفة بعد أن كانت الزخرفة مقصورة على الداخل . أما السقوف فكانت تعمل من الخشب وتنقش العوارض التى تحملها بالرسوم الزيتية والمذهبة فى إطار منسجم متوازن غاية فى الروعة والإبداع . وكانت تضاء هذه العمائر ليلا بالقناديل والتنانير النحاسية والبرنزية المكفتة بالذهب والفضة أو بالمشكاوات من الزجاج المموه بالمينا .

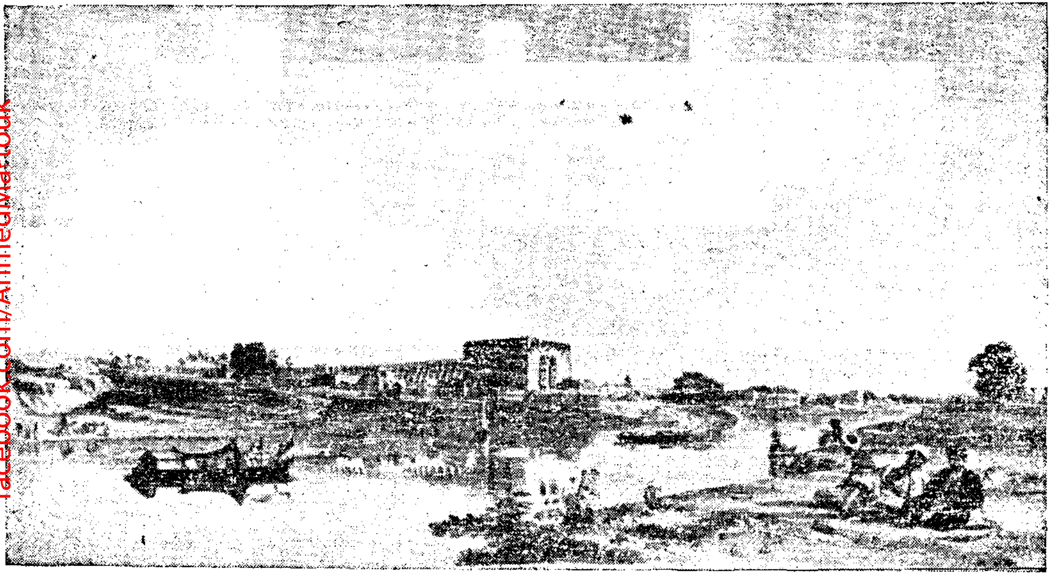
ولم يقتصر الأمر على العمائر الدينية والمبانى السكنية فحسب بل شملت حركة البناء والتعمير إقامة مجارى المياه والقناطر والعيون . ومن أهم هذه المبانى مجرى عيون فم الخليج(١) التى أقامها الناصر محمد بن قلاوون لتوصيل مياه النيل إلى قلعة الجبل ، وتعد هذه المجرى من الآثار العمرانية التى تفخر بها القاهرة فى العصور الوسطى والتى لاتزال باقية حتى الآن . وكان الناصر محمد ابن قلاوون أراد أن يمد القلعة بمزيد من الماء فأمر بحفر بئر أخرى عند ساحل النيل ، وأقام عليها قناطر تتصل بالقناطر العتيقة (سور صلاح الدين) حيث توجد مجرى أخرى للماء ، فيجمع الماء

(١) مجرى عيون فم الخليج للمؤلفة

من بئرين ، بئر سور صلاح الدين ، بئر القناطر ويصير ماء واحدا يجرى إلى القلعة وكان ذلك عام ٧٤١ هـ . انظر لوحة رقم (٥).

ثم أصلحت هذه المجرى سنة ٨١٢هـ على يد الأمير يلبغا السالمى ثم أعاد بناءها السلطان الغورى سنة ٩١١هـ وفى العهد العثمانى أصلح عبدى باشا بعض أجزائه سنة ١١٤٠هـ ثم جاءت الحملة الفرنسية فسدت معظم عقود القناطر واستخدمته سورا تحتمى وراءه .

ويبلغ طول المجرى الموجود الآن والذى يمتد من فم الخليج إلى باب السيدة عائشة ٣,١ كيلومترات تقريبا ويفصل الكورنيش الآن بين رأس المجرى وبين النيل ، ثم يمتد المجرى جهة الشرق فى خط منكسر ، الغرض منه إحداث انثناءات طفيفة فى سير مجراه حتى يزيد من قوة دفع المياه . ويستمر سير المجرى نحو الشرق حتى يلتقى بسبيل (الوسية) حيث يوجد باب قايتباى الذى أقامه عندما رمم الأجزاء المهدمة من السور . ويبلغ طول المجرى من مبدئه حتى سبيل (الوسية) ٢,٢ كيلو متر ، ثم يتغير سير المجرى ويتجه إلى الشمال الشرقى فيمر أمام مسجد (الزمر) ثم ينتهى عند باب السيدة عائشة ، ويبلغ طول المجرى من سبيل (الوسية) حتى مسجد الزمر نصف كيلومتر ومن مسجد الزمر حتى باب السيدة عائشة ما يقرب من ٤٠٠ متر .



لوحة رقم (٥) تبين مجرى عيون فم الخليج

والمجرى مقامة على قناطر يبلغ عدد العقود الباقية منه حتى الآن ٢٧١ عقدا ، ومعظم العقود على شكل شبه دائرى ، وقد أجريت للمجرى عدة إصلاحات كما أدخل عليه بعض التغييرات ، إما لتصدع البناء كما حدث فى العصر العثمانى على يد عبدى باشا سنة ١١٤٠ ه أو لاتخاذها استحكاما حربيا كما حدث فى عهد الحملة الفرنسية فقد سد معظم عقود المجرى واستخدم كسورا .

ويتكون رأس المجرى من شكل سداسى تبلغ مساحته ٦٢٥,٨٥ مترا مربعاً وهو غير متساوى الأضلاع . . وبداخل الشكل السداسى الخارجى يوجد سداسى آخر متساوى الأضلاع ، ويتوسط السداسى الداخلى عمود محيط بالشكل السداسى الداخل ستة عقود وترتكز على أكتاف . وتبرز العقود عن المسدس قليلا بمسافة مكشوفة وغير مغطاة من أعلى . والمأخذ مغطى من الداخل بستة أقباء متقاطعة (مصلبات) مبنية من الطوب ، أما باقى أجزاء المأخذ فمبنى من الحجر الأملس ، وباطنه محشو بالحجارة (الدقشوم) كما هو الحال فى باقى القناطر .

ويصعد إلى سطح المأخذ (بمزلقان) ليس به درج ، ولعل ذلك عمل خصيصا لصعود الدواب التى تستخدم فى إدارة السواقى ،

ويوجد فى وسط السطح حوض تحيط به ست فتحات فى المسافة المتروكة بين العقود، والشكل السداسى الداخلى الذى سبقت الإشارة إليها. وقد خصصت هذه الفتحات لكى تدور فيها العجلة التى تربط بها القواديس التى تجلب الماء من باطن المأخذ ثم تصبه فى الحوض المتوسط، والحوض متصل بمجراة، فإذا امتلأ الحوض بالمياه صب فى هذه المجراة ومنها تسير المياه إلى باقى القناطر. وتتصل الفتحات الست بمجراة بها عمود خشبي يتصل بعجلتين بهما (تروس) إحداها فى وضع أفقى وهذه هى التى يحركها البقر، والأخرى فى وضع رأسى متصلة بالعمود الخشبي الذى يدير بدوره العجلة ذات القواديس بداخل الفتحات وعلى ذلك فإنه يوجد بأعلى المأخذ ست سواق كانت تعمل بنفس الطريقة التى ما زالت تستعمل فى الريف المصرى حتى اليوم.

* * *

ومن أهم آثار المماليك البحرية التى لا تزال قائمة حتى اليوم جامع الظاهر بيبرس البندقدارى، الموجود حاليا بميدان الظاهر وكان يعرف قديما باسم ميدان قراقوش[1]، كما كان الجامع

---

(١) المقريزى جـ ٤ ص ٩١.

نفسه يعرف قديما باسم جامع الصافية[1]. بناه السلطان بيبرس سنة ٦٦٥ هـ واستعمل فى عماراته أخشاب ورخام قلعة يافا التى فتحها سنة ٦٦٦ هـ . وتبلغ مساحة الجامع ما يقرب من ثلاثة أفدنة ، ويتكون الجامع من صحن مكشوف تبلغ أبعاده ٦٠ مترا فى ٧٠ مترا وتحيط به الأروقة من جهاته الأربع . وقد كانت حوائطه الخارجية وأبوابه وكذا أبراجه الأربعة التى تهدمت الآن والتى كان أحدها وهو البرج الغربى مستعملا للوصول إلى السطح ومنه إلى المئذنة ، كانت كلها مبنية من الحجر . ومن الداخل فقد بنيت العقود والقبة وكذلك النوافذ من الطوب، أما الجدران فكانت من الحجر (تلاتات) . وللجامع ثلاثة أبواب تذكارية أى أنها بارزة عن مستوى الواجهات ، وهذه الأبواب حافلة بالنقوش النباتية والهندسية المحفورة فى الحجر كما يعلوها شريط من الكتابة بالخط الثلث المملوكى الجميل . وكان يعلو الباب الغربى مئذنة لم يبق منها الآن سوى آثار قاعدتها المربعة . وقد تعطلت إقامة الشعائر بهذا الجامع منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى وذلك لا تساع رقعته وعجز موارد الدولة عن الصرف عليه ، وكان من نتائج ذلك أن ساءت حالة الجامع

(١) Les mosqnées du caire. A. (137) .

وتخرب ، فحوله العثمانيون إلى مخزن للمهمات الحربية كالخيام والسروج وغيرها . أما في عهد الحملة الفرنسية فقد حول الجامع إلى قلعة وثكنات للجند وعرف الجامع في ذلك الوقت باسم قلعة سيكوفسكي ، وفي عصر محمد على تحول الجامع إلى معسكر لطائفة التكارنة ومخبز للجراية ثم استعمل بعد ذلك مصنعا للصابون[1] . وفي سنة ١٨١٢ م نقلت أعمدة الجامع الرخامية وكذا بعض أحجاره لبناء رواق الشراقوة بالجامع الأزهر وذلك بناء على رغبة الشيخ الشرقاوي[2] . كما يقال إن بعض أعمدة الجامع استعملت في بناء قصر النيل ، ومنذ سنة ١٨٨٢ م اتخذه جيش الاحتلال البريطاني مخبزا ثم مذبحا ، وقد عرف ولا يزال باسم (مذبح الإنجليز) وإن كان الذبح فيه قد أوقف من سنة ١٩١٥م.

وفي سنة ١٩١٨ تسلمته لجنة حفظ الآثار العربية فصلحت بعض أجزائه ورممتها وخاصة الجزء المحيط بالمحراب وجعلت منه مصلى. أما باقي الجامع فقد حولته مصلحة التنظيم إلى متنزه عام.

وقد خلف لنا السلطان الملك المنصور قلاوون الذي تولى عرش السلطنة من سنة ٦٧٨ هـ كثيرا من الآثار التي تشهد

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٤٣ .

(٢) كنز الجوهر في تاريخ الأزهر ص ٤٥ .

بما كانت عليه مصر فى عهده وفى ذلك الوقت من تقدم ورخاء وحضارة ، ومن أهم آثاره الباقية المدرسة والقبة والبيمارستان المنصورى . وتقع هذه المجموعة الآن فى شارع المعز لدين الله[1] (بين القصرين سابقاً) وتنقسم واجهتها الشرقية إلى قسمين ؛ القسم القبلى وهو واجهة المدرسة والبحرى واجهة المقبرة التى تعلوها القبة الضخمة ، وفى نهايته نجد المئذنة الرشيقة التى تتكون من ثلاثة أدوار : الأول مربع الشكل والثانى مستدير والثالث على شكل منجره ينتهى بكورنيش ذى طابع مصرى أصيل غاية فى الدقة والإبداع . وتشبه مئذنة قلاوون إلى حد كبير صورة المنارة المنقوشة على عملة البطالمة . وبين قسمى الواجهة يوجد المدخل الرئيسى الذى يؤدى إلى المدرسة والقبة والبيمارستان .

وقد أقيمت هذه المجموعة الهامة على جزء من أرض القصر الفاطمى الغربى الصغير الذى سبقت الإشارة إليه ، وقد كان يحتوى على قاعة كبيرة لست الملك أخت الخليفة الحاكم بأمر الله رابع الخلفاء الفاطميين ثم آلت ملكيتها بعد ذلك للأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية . وقد بنيت جدران هذه المجموعة من الحجر ، أما الأعمدة فمن الرخام والجرانيت . أما الأبواب والنوافذ

(١) المقريزى جـ ٤ ص ٩٨ .

وكذا الأعتاب فقد خلعت من قلعة الملك الصالح بالروضة بعد أن أمر بهدمها السلطان قلاوون ، وركبت فى مبانى مجموعته. ومبنى القبة عبارة عن تخطيط مربع الشكل تعلوه قبة ضخمة زخرفت بالأخشاب المذهبة والنقوش الزيتية البديعة. أما الجدران من الداخل فقد غشيت بالفسيفساء البديع النادر وبالرخام الملون الجميل ، وهى مقامة على أربعة أعمدة سميكة ومرتفعة من الجرانيت وأربعة أكتاف من المبانى المكسوة بالرخام الملون ، ويعتبر محراب هذه القبة من أكبر المحاريب الإسلامية بمدينة القاهرة . ويتوسط مبنى القبة بقايا تابوت خشبي مكتوب عليه بالخط النسخى اسم المنصور قلاوون . وقد دفن بهذه المقبرة المنصور قلاوون وابنه الناصر محمد والملك الصالح عماد الدين وإسماعيل بن محمد بن قلاوون .

أما المدرسة فإنه لم يبق من مبانيها القديمة إلا الديوان الشرقى بزخارفه الرخامية ومحرابه البديع . وقد أخذ معظم أعمدة للمدرسة من المبانى الرومانية والقبطية المتهدمة(١) .

وأما البيمارستان فقد تهدم معظم مبانيه ولم يبق منه إلا أجزاء من بعض قاعاته . وقد أقامت وزارة الأوقاف

(١) الجبرتى جـ ٢ ص ٦ ، الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ١١٠ .

فى سنة ١٩١٥ على جزء من أرض البيمارستان مستشفى للرمد . وهناك قصة ترويها المراجع التاريخية كسبب فى إقامة هذا البيمارستان ، وهى أن السلطان قلاوون عندما كان أميرا فى بلاد الشام أصيب بمرض القولنج ولم يشف منه إلا بدواء أحضر إليه من بيمارستان نور الدين بدمشق ، فلما شفى زار البيمارستان وأعجب به ونذر إن أتاه الله ملك مصر أن يبنى بها بيمارستانا[١] يجد فيه المرضى شفاء لأمراضهم .

ومن مساجد العصر المملوكى الهامة التى لا تزال باقية بمدينة القاهرة جامع السلطان الناصر محمد[٢] بن قلاوون الذى أنشاه سنة ٧١٨ أى فى سلطنته الثالثة . وقد أقيم الجامع مكان مسجد صغير يرجع إلى العصر الأيوبى ، ومكان مخازن للمفروشات بالقلعة فأزال الناصر تلك الأبنية وأقام مكانها مسجده الذى يقع الآن بجوار جامع محمد على . ويشتمل الجامع على صحن مكشوف تحيط به الأيوانات من جهاته الأربع ومعظم الأعمدة التى أقيمت عليها عقود الإيوانات ، وكذا الأحجار والرخام

(١) بيمارستان : كلمة فارسية مركبة من (بيمار) بمعنى مريض وكلمة (ستان) بمعنى محل .

(٢) المقريزى حـ ٤ ص ٩٨ ، الخطط التوفيقية حـ ٥ ص ١٣٢ .

الذى غشيت به الحوائط أُخذت مما تخلف من قلعة الملك الصالح بالروضة بعد هدمها . ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا الجامع هو أن مئذنته وقبته وكذا جدرانه الداخلية قد غشيت جميعها ببلاطات من القاشانى الأخضر اللون .

ومن العمائر الدينية الهامة فى العصر المملوكى جامع وخانقاه شيخو ، وهما من أهم العمائر التى بناها الأمير شيخو العمرى الناصرى أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون . وقد علا نجمه فى دولة الملك المظفر[1] حاجى بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وفى عهد الملك الناصر حسن عين نائباً لطرابلس . ولما تولى الملك الصالح صالح بن الملك الناصر محمد عرش السلطنة أنعم عليه بتقدمه ألف ولما عاد الناصر حسن إلى الملك للمرة الثانية أنعم عليه بوظيفة أمير كبير ، فعظم نفوذه وكثرت ثروته مما مكنه من أن يشيد تلك المبانى والعمائر الفخمة . ويوجد الجامع والخانقاه فى الصليبية بشارع شيخون بقسم الخليفة ، يراها القادم من ميدان صلاح الدين قاصداً جامع ابن طولون ، ويرى على اليسار — الخانقاه وهى التى أنشأها الأمير شيخو سنة ٧٥٦ هـ ونقل إليها رجال الصوفية الذين كانوا يقيمون بمسجده وأعد

(١) المقريزى ح ٢ ص ٣١٤ ، شذرات الذهب ح ٦ ص ١٨٤ .

لهم بها مساكن خاصة ، كما أعد منها دارا للحديث ومدرسة للمذاهب الأربعة وعلم القراءات، ولما مات الأمير شيخو دفن بها.

وأمام الخانقاه(١) يوجد الجامع وهو بناء جميل المنظر تبلغ مساحته ٩٩٠ مترا ، حليت واجهته العالية بشبابيك جصية متنوعة الزخارف والرسوم ، كما زخرفت الواجهة بالمقرنصات المختلفة وبالكتابات القرآنية بالخط الثلث المملوكى المنقوشة على أرضية نباتية دقيقة ، وكل ذلك محفور فى الحجر ، وتعلو الجامع مئذنة مكونة من ثلاث طبقات وهى تماثل فى ارتفاعها وفى طرازها مئذنة الخانقاه . ويوصل إلى صحن الجامع(٢) دركاه وأرضية الصحن مفروشة بالرخام الملون ، وتحيط به الايوانات من جهاته الأربع . ويغطى النوافذ العليا للمسجد شبابيك جصية بها زجاج

---

(١) الخانقاه : مكان لاجتماع طائفة الصوفية وإيواء الفقراء منهم ، وأول من أدخل هذه المبانى فى مصر صلاح الدين الأيوبى ، فقد أنشأ الخانقاه الصلاحية دار السعداء وسماها (دويرة الصوفية) .

المقريزى حـ ٤ ص ٢٧٣ ، تاريخ التمدن الإسلامى حـ ١ ص ٢٠٢ .

(٢) دركاه : كلمة فارسية معناها المكان الواطىء ، أما من الناحية المعمارية فهى عبارة عن ردهة صغيرة تلى المدخل الرئيسى وأرضيتها منخفضة عنه .

ملون يعتبر تحفة فنية رائعة ، وسقوف المسجد محلاه بنقوش وكتابات ملونة .

ومنبر المسجد وكذلك دكة المبلغ من الحجر وهى أول دكة حجرية فى آثار القاهرة إذ المألوف أن تكون الدكة من الرخام أو الخشب، كما أن المنبر يعتبر ثانى منبر حجرى، ومحراب المسجد مكسو أعلاه بالرخام وأسلفه بالقاشانى (الأسبانى - المغربى). وبالايوان الشرقى للمسجد يوجد كرسى للمصحف وهو من الخشب الخرط ، وحليت جوانبه بالأطباق النحمية المطعمة بالصدف . وكان أول درس ألقى فى هذا المسجد فى نهاية القرن الخامس عشر من العالم الجليل والمؤرخ الكبير الإمام عبد الرحمن السيوطى بحضور أساتذته ، ثم ولى وهو صغير السن إحدى وظائف المسجد(١) .

ومن العمائر الدينية أيضاً التى أنشأها امراء دولة المماليك البحرية مدرسة صرغتمش وهو من مماليك الناصر محمد بن قلاوون وكان قد تولى وظيفة جمدار فى بلاطه ، ولقب « جمدار » مركب من كلمتين : جام ومعناها بالفارسية مرآة ، ودار أى حامل، وإذن فالوظيفة معناها حامل المرآة أمام السلطان . ثم رقى فى عهد الملك

(١) شذرات الذهب : جـ ٨ ص ٥٢ .

المظفر حاجي بن محمد بن قلاوون إلى درجة أمير الطبلخاناه ، ثم عين بعد ذلك رأس نوبة كبير ، وهو لقب من يتولى رئاسة المماليك وبذلك اشتد نفوذه[1] وانفرد بتدبير شئون الدولة بعد الأمير شيخو .

ويقول المقريزي في وصف هذه المدرسة إنها جاءت من أبدع المباني وأجلها وأحسنها . واحتفل صرغتمش بافتتاحها بحضور الأمراء وقضاه المذاهب الأربعة والعلماء ورتب بها درسا للحديث النبوى ، ورصد عليها أوقافا منها منية حلفا بالقرب من قناطر أبو المنجا[2] .

وقد أنشئت المدرسة سنة ٧٥٧ وأعدت لتدريس المذهب الحنفي،وكانت معدة لعلماء الحنفية وخاصة الفرس منهم في القرنين الثامن والتاسع الهجرى وقد بنيت ملاصقة للزيادة الغربية لجامع ابن طولون وبسببها سد بابان من أبواب هذه الزيادة . وقد انفردت هذه المدرسة بمميزات معمارية فنية متأثرة فيها إلى حد كبير بالطراز المعماري الفارسي مما يرجح معه أن يكون مهندسها فارسيا . وتتكون المدرسة من صحن مكشوف تحيط به

(١) الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٦ .
(٢) ابن دقماق جـ ٥ ص ٤٧ .

أربعة أيوانات وتتوسط الصحن فسقية حولها ثمانية أعمدة رخامية . ويوجد بالايوانين الشرقى أربعة أبواب اثنان منها يوصلان إلى خلوات ، والآخران يوصلان إلى المدارس وبكل من الإيوانين القبلى والغربى أربع خلوات كما يوجد بالإيوان البحرى أربعة أبواب .

ومما يسترعى الانتباه فى هذه المدرسة القبة المقامة فوق المحراب ، فهى أول قبة باقية فوق محراب مدرسة ، ولهذه القبة مقرنصات خشبية . ومئذنة المدرسة مبنية من الحجر ويبلغ ارتفاعها ٤٠ مترا وهى تتكون من ثلاث طبقات ، الأولى والثانية على شكل مثمن ، أما الطبقة الثالثة فتتكون من عمد رخامية تحمل مقرنصات[١] جميلة ورشيقة فوقها خوذة منقوشة ، وقد لبس الحجر الأبيض فى هذه المنارة بالحجر الأحمر بشكل زخرفى جميل ، وذلك فى الطبقة الثانية وتعرف هذه الطبقة باسم (الأبلق)[٢] ، وهى من مميزات العصر المملوكى . وتحتوى المئذنة على شرفة واحدة فى أحد أضلاع قاعدتها الأولى ، بينما المألوف وجود أربع شرفات .

(١) المقرنص : عبارة عن مثلث مقعر يبنى فى أركان الحجرة المربعة لكى يحولها إلى مثمن يسهل معه إقامة قبة عليها .

(٢) الأبلق : يطلق على المبانى التى تزخر واجهاتها بلونين من الأحجار عادة الأبيض والأحمر أو الأبيض والأسود .

وإذا كان لمصر الفرعونية أن تفخر بأهراماتها العظيمة فإن لمصر الإسلامية أن تتيه عجبا بمدرسة (مسجد) السلطان حسن التى تعد بحق من روائع العمارة الإسلامية، جمعت بين نخامة البناء وجمال الفن والهندسة الدقيقة المتناسقة وروعة الزخرفة، سواء المنقوشة منها على الحجر أو الرخام أو الخشب؛ أو تلك المحفورة على النحاس[1] المكفت بالذهب والفضة أو المرسومة على الزجاج المموه بالمينا، فجاءت آية فنية فى جمالها وجلالها لا مثيل لها فى العمائر الإسلامية فى الشرق. وقد وصفها الرحالة المغربى الورثيلانى الذى زار مصر فى القرن الثانى عشر الهجرى بقوله « إنه مسجد لا ثانى له فى مصر ولا فى غيرها من البلاد فى نخامة البناء وبناهته وارتفاعه وإحكامه، واتساع حناياه وسعة أبوابه كأنها جبال منحوتة، تصفق الرياح فى أيام الشتاء بأبوابه كما تفعل فى شواهق الجبال . وفى أحد أبوابه سارية رخامية لطيفة يقال إنها من إيوان كسرى. وفيها نقوش عجيبة »

وقال المقريزى فى وصفها « لا يعرف فى بلاد الإسلام معبد

(١) التكفيت: طريقة فى زخرفة الأوانى المعدنية قوامها حفر رسوم وزخارف على المعدن، ثم تملأ الشقوق الناتجة بمعدن آخر مختلف عنه فى اللون، ويكون عادة أغلى من معدن الآنية، فمثلا يكفت البرنز بالفضة وتكفت الفضة بالذهب:

من معابد المسلمين يحاكى هذا الجامع ، وقبته لم يبق بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها » .

أنشأ هذه المدرسة السلطان حسن بن السلطان الناصر محمد ابن السلطان المنصور قلاوون ، وتقع فى المكان الذى عرف قديماً باسم سوق الخيل (تحت القلعة) وكان به قصر من أجمل قصور العصر المملوكى أمر بإنشائه الملك الناصر محمد بن قلاوون لسكنى الأمير يلبغا البحيادى ، وقد بقى هذا القصر حتى أمر بهدمه السلطان حسن وبنى محله هذه المدرسة .

وقد ابتدأ السلطان حسن فى بنائها سنة ٧٥٧ ﻫ واهتم بها اهتماما بالغا وبذل فى سبيلها أموالا طائلة وامتد العمل فيها لعشر سنوات أرهقته فى خلالها كثرة النفقات حتى قيل إن الطواشى مقبل الشامى نسب إلى السلطان حسن أنه قال « لولا أن يقال إن ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه (١) .

وقد يكون هذا القول صحيحا لأن ضخامة المبنى وعظمته وما تحلى به من زخارف ونقوش يدل على جسامة نفقاته وتكاليفه .

وتخطيط المدرسة يشبه التصميم الصليبي (Cruci forme) فهى

---

(١) تاريخ جامع السلطان حسن ص ١٥ وما بعده .

تشتمل على أربعة أيونات يتوسطها صحن مكشوف يقوم فى وسطها قبة خشبية مقامة فوق فسقية الميضأة . وكان فى تخطيط المدرسة أن يكون لها أربع منارات ولكنه لم يبق غير ثلاث سقطت واحدة وبقيت اثنتان . . والمدرسة عبارة عن شكل متعدد الاضلاع تبلغ مساحتها حوالى فدانين بما فى ذلك القبة الملاصقة للواجهة الشرقية. وتحيط بالصحن أربع مدارس للمذاهب الأربعة وتتكون كل مدرسة منها من إيوان وصحن تتوسطه فسقية ، ثم من عدة طبقات تشرف على صحن المدرسة الفرعية وعلى واجهة المدرسة الكبيرة .

وكان نظام الدراسة فى هذه المدارس يشبه إلى حد كبير نظام المدارس المعمول به فى القرن العشرين ، فقد قرر السلطان(١) حسن لكل مدرسة شيخا (يشبه ناظر المدرسة الآن) ومدرسا للقرآن ومدرسا للحديث النبوى ، ومقرئا لقراءة الحديث ، كما عين السلطان ملاحظين لمراقبة الحضور والغياب أحدهما بالليل والآخر بالنهار ، كما أعد بكل مدرسة مكتبة وعين لها أمينا . وكان يقبل بكل مدرسة مائة طالب داخلية ، من كل

(١) الخطط التوفيقية . جـ ٤ ص ٨٣ و ٨٤

فرقة خمسة وعشرون متقدمون وثلاثة معيدون . وكان يعين ثلاثون طالبا للقيام بوظيفة النقيب والبعض الآخر يقوم بوظيفة داع للسلطان عقب الدروس . كما ألحق بالمدارس مكتبين لتعليم الأيتام القرآن والخط ، وقرر لهم الكسوة والطعام وكان إذا أتم اليتيم حفظ القرآن يمنح خمسين درهما ويمنح معلمه كذلك خمسين درهما مكافأة له ، ويشبه هذا النظام عندنا اليوم مدارس محو الأمية . كذلك عين طبيبين أحدهما للأمراض الباطنية والآخر للعيون يأتيان للمدرسة بصفة مستديمة ورتب طبيباً ثالثاً للجراحة يحضر عند الحاجة ، وقد أوقف الأوقاف للصرف على مرتبات الأساتذة والطلبة والموظفين وما إليها .

ولم يقتصر استعمال مدرسة السلطان حسن على إقامة الشعائر الدينية وتدريس علوم اللغة والدين فحسب ، بل استعملت كذلك كقلعة فى أوقات الفتن والثورات التى كثيراً ما يقوم بها أمراء المماليك وخاصة عند تولية السلطان الجديد ، وذلك لوقوعها أمام قلعة الجبل . ففي سنة ٧٩١ هـ اتخذها المماليك حصنا يدافعون به عن أنفسهم[١] ، فنصب عليها المكاحل (المدافع)

---

(١) ابن اياس جـ ١ ص ٢٧٨ .

وضربوا بها على باب السلسلة بالقلعة فهرب المماليك . ولما تكررت مثل هذه الحوادث أمر السلطان الظاهر برقوق بهدم السلم الموصل إلى سطح المدرسة ، على أن ذلك لم يقض على استعمال المدرسة كحصن فقد استعملت بعد ذلك سلالم المآذن للوصول إلى السطح فى حوادث كثيرة مما أدى إلى تعريض المدرسة لمدافع القلعة فتخربت أجزاء منها ونهب كثير من فرشها وقناديلها ومشكاواتها(١) .

* * *

وهناك عدد كبير من أحياء القاهرة التى كان لها شأن يذكر فى عصر دولة المماليك البحرية ولا يزال الكثير منها يحتفظ بمركزه وكيانه ، بل وباسمه فى كثير من الأحيان حتى اليوم ، وفيما يلى أهم هذه الأحياء .

حى الحسينية(٢):

وكان هذا الحى فى أول الأمر حارة كبيرة واقعة خارج سور القاهرة تجاه باب الفتوح ، والحسينية منسوبة لجماعة الأشراف

---

(١) ابن اياس حـ ٢ ص ٣٢٦
(٢) النجوم الظاهرة حـ ٤ ص ٤٥ ، صبح الأعشى : حـ ٣ ص ٣٥٥ الخطط التوفيقية حـ ٢ ص ٣

الحسينيين قدموا من الحجاز ونزلوا تلك المنطقة واستوطنوها وكان ذلك فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل كما يقول محمد رمزى ، أما المقريزى وابن عبد الظاهر فيقولان إنهم أتوا فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أى قبل الملك الكامل بما ينيف عن مائتى سنة . ولما استقرت هذه الطائفة بالحى المنسوب إليها ، بنوا المدابغ وصنعوا الاديم المشبه بالطائفى ، نسبة الى مدينة الطائف بالحجاز وكانت مشهورة بمدابغ الجلود .

ثم سكن الأحفاد بعد ذلك هذا الحى وكانوا من طوائف الريحانية الغزاوية والمولدة والعجمان وعبيد الشراء . وفى العصر المملوكى أصبح الحى يتكون من ثمانى حارات ، حارة حامد والمنشية الكبرى والمنشية الصغرى والحارة الكبيرة والحارة الوسطى وكانت لعبيد الشراء ، والوزيرية وكان يسكنها الأرمن .

ويتوسط حى الحسينية اليوم من الجنوب إلى الشمال شارع الحسينية وشارع البيومى من باب الفتوح إلى ميدان الأمير فاروق (ميدان الجيش الآن) وما يزال هذا الحى يحتفظ حتى اليوم بكثير من مظاهره فى العصور الوسطى .

باب اللوق[1] :

جاء فى المقريزى يقال لاق الشىء يلوقه لوقا ولوقه لينه . وقال ابن سيده فكان هذه الأرض لما انحسر عنها ماء النيل كانت أرضا لينة وإلى الآن فى أرض مصر إذا ما نزل عنها ماء النيل لا تحتاج إلى الحرث للينها بل تلاق لوقا . وقد ظهرت أرض اللوق فى عهد الدولة الفاطمية والأيوبية كطرح بحر ثم أضيفت إليها طروحات أخرى فى أوائل عهد دولة المماليك البحرية . وكانت أرض اللوق تشمل المنطقة التى يحدها اليوم من الشمال شارع قنطرة الدكة ومن الغرب أول شارع رمسيس عند مصلحة المجارى ومن الجنوب مستشفى القصر العينى وشارع بستان الفاضل . ومن الشرق شارع بور سعيد الآن (الخليج المصرى)فشارع سعد الدين فشارع نوبار إلى أن يتقابل مع شارع الشيخ ريحان (حسين رشدى الآن) ثم ينعطف شرقا حتى يتصل بشارع عماد الدين (محمد فريد الآن) عند تلاقيه بشارع الخديو اسماعيل ثم يستقيم الحد متجها إلى الشمال إلى أن يتقابل مع الحد البحرى عند شارع قنطرة الدكة . وقد جاء فى كتاب النجوم

---

(١) المقريزى جـ ٣ ص ١٩٢ ، الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ٦١ .

الزاهرة ، أن الحد الشرقى لأرض اللوق كان هو مكان الشاطىء الشرقى للنيل تجاه القاهرة لغاية سنة ٦٩ هـ (٦٨٨ م) أى أن النيل كان يجرى عند هذا الحد قبل ظهور أرض اللوق .

وذكر المقريزى أنه أنشىء بأرض اللوق كثير من البساتين والمنشآت مثل منشأة القاضى الفاضل وبستانه ومنشأة ابن ثعلب وبستان ومنشأة الكتبة وغيرها . ثم زالت هذه المنشآت وبقيت أرض اللوق أرضا زراعية حتى سنة ٦٦٠ هـ حين قدم إلى مصر طائفة من التتارمستأمنين فأنزلهم الملك بيبرس البندقدارى فى دور كان قد أمر ببنائها لهم فى أرض اللوق . ومنذ ذلك الوقت أصبحت بأرض اللوق عدة أحكار عامرة وآهلة بالسكان ، ولكنها سرعان ما تخربت وتحولت إلى أرض زراعية مرة ثانية وبقيت كذلك حتى عام ١٨٥٨ م حيث لم يوجد بها إلا مجموعة من المساكن الواقعة خارج باب اللوق بين شارع البستان وشارع جامع جركس ، وقد بدأت عمارة أرض اللوق منذ عهد الخديو اسماعيل واكتظت بالمبانى والعمائر حتى صارت المنطقة كلها مشغولة بالدور والقصور ويتخللها الشوارع الواسعة والميادين التى تمتد من قنطرة الدكة إلى مستشفى قصر العينى وشارع بستان فاضل .

الجسر الأعظم وقناطر السباع (حى السيدة زينب)(١)

أنشأ الظاهر بيبرس جسراً على الخليج عرف باسم قناطر السباع . ويقول المقريزى إن الجسر الأعظم كان يفصل بين بركة قارون وبركة الفيل ثم أصبح بعد ذلك شارعاً مسلوكا يمتد من قلعة الكبش حتى قناطر السباع . ويعرف مكان هذا الجسر اليوم باسم شارع مراسينا ، ويوصل بين ميدان السيدة زينب حيث كانت قناطر السباع وبين جامع سنجر الجاولى الذى يقع تحت قلعة الكبش . وهناك يعرف امتداده باسم شارع الخضيرى . وقد عرفت قناطر السباع بهذا الاسم نسبة إلى نقش السباع الموجود عليها وهى (رنك) الظاهر بيبرس، ثم عرفت بعد ذلك باسم قنطرة السيدة زينب ، وكانت تتكون من قنطرتين إحداهما توصل بين شارع الكومي وشارع السد ، والثانية كانت توصل بين شارع الكومى وشارع مراسينا . وفى سنة ١٨٩٨ م تم ردم الجزء الأوسط من الخليج وبردمه اختفت هـذه القناطر تحت ميدان السيدة زينب الذى دخل فيه جزء من شارع الكومى وجزء آخر

---

(١) المقريزى حـ ٣ ص ٢٣٨ .
الخطط التوفيقية حـ ٢ ص ١٣٥ .

من شارع مراسينا . وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون استجد أكثر من ستين حكراً على ضفة الخليج الغربية ابتداء من قناطر السباع (ميدان السيدة زينب) إلى قنطرة باب الخرق (ميدان باب الخلق) الآن . وعلى ذلك فإن أغلب الأحياء الموجودة حتى الآن فى هذه المنطقة عمرت منذ ذلك الحين . وقد وسع هذا الميدان فى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٨ م) . وعند عملية التوسع اكتشف واجهة جامع السيدة زينب الذى كان الوالى العثمانى على باشا قد جدده سنة ٩٥٥ هـ (١٥٤٧م) ، ثم أعاد تجديده الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٠ هـ (١٧٦٨ م) . ومنذ اكتشاف واجهة الجامع فى القرن التاسع عشر ، أصبح يطلق على ميدان قناطر السباع اسم ميدان السيدة زينب(١) .

حى شبرا(٢) :

كان شاطىء النيل الشرقى لمدينة القاهرة فى عهد الدولة الفاطمية ينتهى عند شارع عماد الدين (محمد فريد الآن) فقرية أم دنين حيث يوجد جامع أولاد عنان الآن فميدان باب الحديد

(١) الخطط التوفيقية حـ ٣ ص ١٦
(٢) المقريزى حـ ٣ ص ٣٠١ .

فالمنطقة القائم عليها محطة كوبرى الليمون ثم يتجه النيل شمالا إلى الشرابية، ثم منية السيرج ومنها إلى المكان الذى تبدأ منه اليوم ترعة الإسماعيلية. وكان ثغر القاهرة فى ذلك الوقت فى المكان الذى يعرف اليوم بميدان السكة الحديد، وكان به أعظم دار للصناعة وبناء السفن خاصة، حيث بنى أسطول المعز لدين الله وأسطول صلاح الدين ودولة المماليك الذين قضوا به على أساطيل الصليبيين، ولكن حدث فى أواخر الدولة الفاطمية أن غرق فى النيل بالقرب من هذا الثغر مركب اسمه الفيل وترك فى مكانه فتراكم فوقه الطمى والرمال وانحسر عنه النيل فصار جزيرة فيما بين المنيه وأرض الطبالة، وارتفعت أراضيها بالتدريج وأطلق عليها الناس اسم (جزيرة الفيل)، وصارت هذه الجزيرة فى وسط النيل. وما برحت تتسع حتى أخذت شكلها النهائى سنة ٥٧٠ هـ فى عهد صلاح الدين الأيوبى، حيث استغلت فى الزراعة ومن ثم أوقف صلاح الدين ريعها على المدرسة التى أنشأها بالقرافة بجوار ضريح الأمام الشافعى المعروفة بالمدرسة الصلاحية، والتى عرفت بالمدرسة الناصرية، وقد أزيلت هذه المدرسة وبنى مكانها جامع الإمام الشافعى(١).

(١) الخطط التوفيقية حـ ٦ ص ٩.

على أن مساحة الجزيرة أخذت تزداد كلما انحسرت عنها مياه النيل فى كل عام . ولما تولى الملك المنصور قلاوون أمر بأن توقف — على بيمارستانه الموجود بشارع المعز ، وقد سبق الكلام على غلة الأرض التى استجدت بعد وقف صلاح الدين على مدرسته. وقد سكن الناس بها والزراع بصفة خاصة فأكثروا من زراعة البساتين . وفى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون انحسر النيل عند جانب المقس الغربى وصارت رمالا متصلة من الجهة البحرية بجزيرة الفيل . وفى جنوب الجزيرة توجد أراضى اللوق التى سبق أن تكلمنا عنها وبذلك أخذت المبانى والعمائر تنتشر فى تلك الرمال المستجدة التى تعرف اليوم ببولاق واتصلت عمارتها بعمارة القاهرة ومصر ، كما كان بجزيرة الفيل الكثير من القصور والعمائر والبساتين حتى لم يخل مكان منها وحكر ما كان منها وقفاً على المدرسة الصالحية وعلى البيمارستان وغرس ذلك كله بساتين فبلغ تعدادها سنة ٧٤١ هـ ما ينيف على مائة وخمسين بستانا . كما أنشىء بها سوق كبير يباع فيه أكثر الحاجات التموينية وبنى بها جامع واصطفت حوله الدور وأصبحت قرية كبيرة وأخذت تنمو نموا مطردا .

أما مكان جزيرة الفيل الآن فهى المنطقة التى يخترقها شارع شبرا الآن من الجنوب إلى الشمال ، وكان يحدها (وقت أن كانت

وسط المياه) من جهة الغرب النيل وشارع أبو الفرج . ومن الجنوب شارع جزيرة بدران وشارع بركات ومن الشرق منطقة كوبرى الليمون والفجالة وبركة الرطل ، ومن الشمال الشرابية ومنية السيرج ومنها إلى فم ترعة الإسماعيلية . وفى عصر المنصور قلاوون ظهرت فى النيل الأرض المعروفة الآن باسم بولاق، ثم طمى السيالة ، التى كانت تفصل هذه الأرض عن جزيرة الفيل ، فاتصلت هذه الجزيرة بأرض بولاق و بالشاطىء الشرقى القديم للنيل أمام القاهرة .

وفى العصر التركى تغير اسم جزيرة الفيل وأصبحت تعرف باسم جزيرة بدران[١] نسبة إلى الشيخ بدران صاحب الضريح الموجود بجامع الشيخ بدران بشارع ترعة جزيرة بدران بقسم روض الفرج ، ولما جاء محمد على أنشأ بناحية شبرا الخيمة قصرا خاصا به ومد إليه شارع شبرا الحالى وكان ذلك سنة ١٨٠٨ م فعرفت المنطقة المحيطة بهـذا الشارع باسم شبرا ، وأخذت هذه المنطقة فى العمران وأقبل الناس عليها إقبالا كبيرا حتى أنها أصبحت الآن من أكبر أقسام القاهرة ، مما أدى إلى تقسيمها إلى قسمين وهما قسم شبرا وقسم روض الفرج .

(١) Description de L' Egypte. XX11 p. (72).

بولاق(١) :

ذكرنا من قبل أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أنشأ دارا لصناعة السفن على البر الغربى للخليج فى المنطقة التى عرفت قديما باسم أم دنين ، ولما تولى الحاكم بأمر الله رابع خلفاء الفاطميين أقام مسجداً فى تلك المنطقة ،ومن ثم أصبحت منطقة آهلة بالسكان بعد أن كانت دار صناعة فقط وأضحت من أهم ثغور القاهرة ، وعرفت منذ ذلك الوقت باسم المقس . ويقول أبو عبد الله القضاعى إن المقس إنما سميت بهذا الاسم لأن (العاشر) يقعد بها وهو صاحب المكس وقلبت (الكاف) (قافا) والعاشر أو العشار هو الماكس والمكس لغة الجباية . وقال ابن سيده فى كتابه المحكم: المكس دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع فى الأسواق .

وكانت المقس على ساحل النيل فى ذلك الوقت فلما انحسر ماء النيل بعد سنة ٥٧٠ هـ(٢) وظهرت جزيرة الفيل التى سبقت الإشارة إليها تقلص النيل عن سور القاهرة الذى ينتهى عند المقس، فامتلأت المنطقة بالرمال وظهرت الجزر التى أخذت تزداد سنة

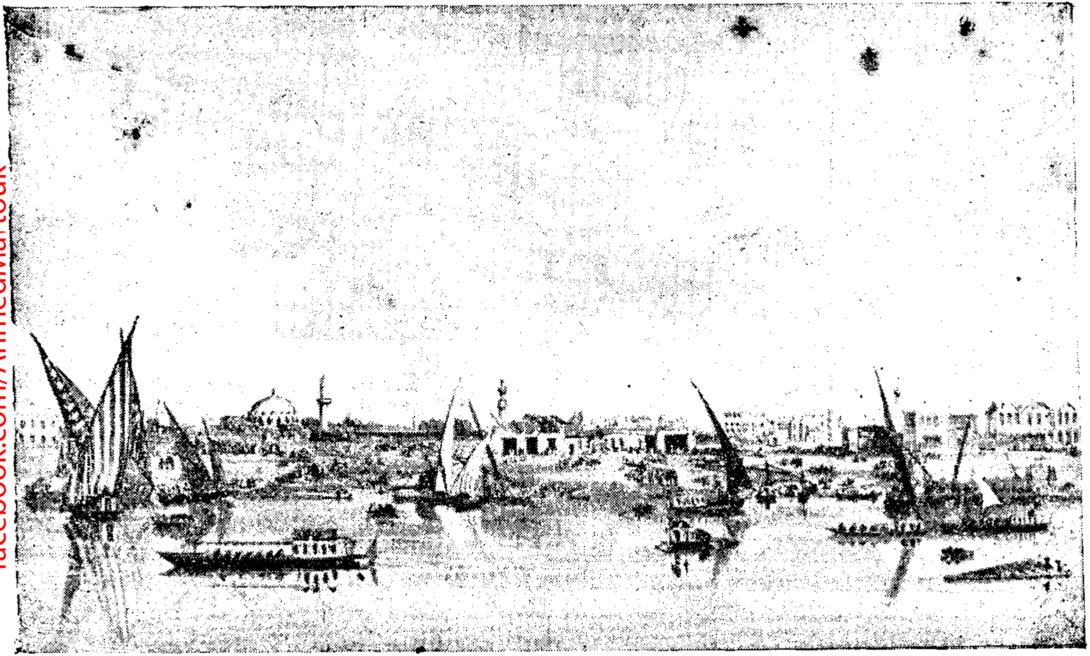
---

(١) المقريزى : حـ ٣ ص ٢١٢ .

(٢) المقريزى : حـ٣ ص ١٩٦ ، الخطط التوفيقية : حـ٣ ص ١٠٠، النجوم الزاهرة : حـ٤ ص ٥٣ ، صبح الأعشى حـ٣ ص ٣٥٧ .

بعد أخرى حتى أصبح ماء النيل لا يمر بهذه المنطقة إلا فى أيام الفيضان ، أما فى باقى أيام السنة فكانت قطعة فسيحة من الأرض يكسوها البصوصى والحلفاء وتنزل فيها مماليك السلطان للرياضة ولرمى النشاب فى التلال الرملية الموجودة بها وعرفت منذ ذلك الحين باسم بولاق . فلما كانت سنة ٧١٣ هـ أقبل أهل القاهرة على عمارتها لما بدا من عناية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بها فسكنها الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة ، حتى لم يبق موضع بها من غير عمارة وأصبحت شوارعها مسلوكة وأزقتها مطروقة وقصورها عامرة وبساتينها ناضرة (انظر لوحة ٦).

ومنذ سنة ٨٠٦ هـ انحسر ماء النيل عن ساحل بولاق ولم يزل يبعد حتى صار على ماهو عليه الآن . واستمرت بولاق ثغرا لمدينة القاهرة حتى عهد سعيد باشا حيث افتتح أول خط حديدى بين القاهرة والإسكندرية سنة ١٨٥٦ م فأخذت أهمية هذا الثغر تقل تدريجا وقلت حركته التجارية شيئاً فشيئاً حتى أصبحت مقصورة على بعض المراكب التجارية والترسانة . وكانت الأرض التى بين بولاق وشارع رمسيس الحالى أرضا زراعية وبساتين يمتد فى وسطها جسر يوصل إلى السلطان أبى العلاء (شارع ٢٣ يوليو الآن) وفى عهد الخديو إسماعيل عمرت تلك الأراضى الزراعية



لوحة رقم (٦) تبين بولاق كما كانت سنة ١٨٤٠ م

وكثرت فيها المبانى، ومنذ ذلك الوقت أخذت مبانيها تزداد وتتسع حتى اتصلت بمبانى وعمائر القاهرة واضحت قسما إداريا هاماً.

ميدان باب الخلق (١)

يقال للأرض البعيدة التى تخرقها الريح لاستوائها الخرق، وقد كانت المنطقة المعروفة الآن بباب الخلق (والتى حرفت فيها كلمة خرق إلى خلق)، ساحلا وموردا للسقائيين فى أيام الدولة الفاطمية واستمرت على ذلك حتى جاء الملك الصالح نجم الدين الأيوبى، فأنشأ ميدانا بأرض اللوق عرف بالميدان السلطانى. وعمر ذلك الميدان وكثرت به المبانى مما دعا السلطان الملك الصالح أن ينشىء قنطرة على الخليج عند أرض الخرق، عرفت بقنطرة باب الخرق وكان ذلك فى عام ٦٢٩ هـ. وفى أيام الناصر محمد أى فى نهاية القرن السابع الهجرى استجد أكثر من ستين حكرا على ضفة الخليج الغربية ابتداء من قناطر السباع (ميدان السيدة زينب) الآن إلى قنطرة باب الخرق (ميدان باب الخلق) الآن وما زالت الأحكار تكون هذه المنطقة. ولما ردم الخليج

(١) الخطط التوفيقية : جـ ٣ ص ٧ ، ٥١ ، المقريزى جـ ٣ ص ٢٣٩ .

تلاشت القنطرة تبعا لذلك . وكان يوجد فى هذا الميدان ضريح مشهور عند العامة بضريح الست سعادة ، وهذا خطأ ، والصحيح أنه ضريح سعادة غلام المعز لدين الله[1] .

الموسكى[2] :

فى عهد السلطان صلاح الدين الأيوبى أنشأ الأمير عز الدين موسك سنة ٥٨٤ﻫ قنطرة على الخليج عرفت باسم قنطرة الموسكى وكان يتصل إليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويمر فوقها إلى الشاطىء الغربى للخليج . ومنذ ذلك الوقت عمرت المنطقة بالأسواق والحوانيت وأصحاب الحرف . وفى عهد محمد على فتح شارع الموسكى على امتداد شارع السكة الجديدة حتى تلال البرقية . وامتلأ شارع الموسكى بالدكاكين على الصفين . وما زالت معظم هذه الحوانيت تحتفظ بطابعها الشرقى القديم ، كما أن الحرف القديمة ما زالت تمارس فى هذا الشارع .

(١) المقريزى : ﺣ ٢ ص ٢١٣ ، الخطط التوفيقية : ﺣ ٣ ص ٩ ، ٤٥ ، ٤٨ .

(٢) المقريزى : ﺣ ٣ ص ٢٣٩ ، الخطط التوفيقية ﺣ ٣ ص ٣٢ .

الخانكة (١) :

الخانكة أو الخانقاه كلمة فارسية معناها البيت وقيل أصلها خو نقاه أى الموضع الذى يأكل فيه الملك ، وقد ظهرت الخوانك فى الدولة العباسية فى القرن الرابع الهجرى فى العراق وهى أماكن خصصت ليختلى فيها الصوفية لعبادة الله . أما فى مصر فإن أول من أنشأ الخانقاه هو صلاح الدين الأيوبى ، فقد أقام الخانقاه الصلاحية مكان دار سعيد السعداء خادم الخليفة المستنصر الفاطمى ، وكان غرض صلاح الدين من بناء تلك الخانقاه هو إيواء الفقراء الصوفية الوافدين من البلاد النائية ، ووقفها عليهم وكان ذلك فى عام ٥٦٩ هـ . أما الخانقاه التى نحن بصدد الكلام عليها فتعرف باسم خانقاه سرياقوس ويقص علينا المقريزى القصة الآتية عنها يقول : كان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من عادته أن يخرج للصيد فى الأحراش والميدان الذى أنشأ حول بركة الجب بمنطقة سرياقوس شمال القاهرة . واتفق أن ركب على عادته للصيد هناك فلما وصل إلى منطقة سرياقوس أحس بألم عظيم فى جوفه كاد يأتى عليه وهو يتجلد ويكتم ما به حتى عجز عن

(١) المقريزى : جـ ٤ ص ٢٨٤ .

احتمال الألم فنزل عن الفرس والألم يتزايد به ، فنذر لله إن عافاه ليبنين فى هذا الموضع مكانا يعبد فيه الله . ثم عاد إلى قلعة الجبل فلزم الفراش عدة أيام فلما عوفى ركب بنفسه ومعه عدد من المهندسين وخط على بعد ميل من ناحية سرياقوس هذه الخانقاه وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى وبنى بجانبها مسجدا تقام به الجمعة وبنى بها حماما ومطبخا . ولما تم بناء الخانقاه سنة ٧٢٥ ﻫ خرج بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانق ومدت الأسمطة داخل الخانقاه ، وخلع السلطان الخلع على الأمراء وأرباب الوظائف وفرق بها ستين ألف درهم فضة ، ومنذ ذلك الحين رغب الناس فى السكنى حول هذه الخانقاه وبنوا الدور والحوانيت والخانات حتى صارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاه سرياقوس .

وقد يكون من المفيد أن نذكر على سبيل المثال ما كان يجرى من أرزاق على نزلاء الخانقاه من الصوفيين لنستبين منه ما كانت عليه البلاد فى ذلك الوقت من يسر ورخاء كما يدل فى نفس الوقت على مدى تقدير سلاطين المماليك وإجلالهم للمشتغلين بالدين والمنقطعين للعبادة. يقول المقريزى : كان يصرف لكل صوفى فى اليوم من لحم الضأن المطبوخ رطل ومن الخبز النقى أربعة أرطال ، ويصرف له كل شهر مبلغ أربعين درهما من

الفضة ، ورطل حلوى ورطلان من زيت الزيتون ، ومثل ذلك من الصابون ، ويصرف له ثمن الكسوة فى كل سنة وتوسعة فى شهر رمضان وفى العيدين وفى مواسم رجب وشعبان وعاشوراء . وكلما ظهرت فاكهة يصرف له مبلغ لشرائها ، كذلك كان يوجد بالخانقاه مخازن للسكر والأشربة والأدوية . وفى أول شهر رمضان كان يفرق على الصوفية كيزان لشرب الماء وتبيض لهم قدورهم النحاس ويعطون الأشنان لغسل الأيدى . كما عين للخانقاه أطباء متخصصون مثل الطبائعى (طبيب الأمراض الباطنية) والجرائحى (الجراح) والكحال (طبيب العيون) كذلك يعين لهم مصلح الشعر ، كما يعين حلاق بالحمام التابع للخانقاه لتدليك أبدانهم وحلق رؤوسهم فكان المنقطع بها لا يحتاج إلى شىء غيرها ويتفرغ للعبادة .

ولما تدهورت حالة البلاد الاقتصادية فى أوائل القرن التاسع الهجرى بطل صرف الطعام وصار يصرف لهم ثمنه نقداً .

أما الآن فقد درست الخانقاه وحلت محلها مستشفى للأمراض العقلية وإن كانت المنطقة ما زالت تعرف حتى الآن باسم الخانكة .

حي الخرنفش (١)

الخرشتف هو ما يتحجر مما يوقد به في مياه الحمامات من القمامات وغيرها ، وقد حرف الاسم الآن وأصبح الخرنفش. وكان حي الخرنفش في العصر الفاطمي عبارة عن ميدان بجوار القصر الغربي والبستان الكافوري . فلما زالت الدولة الفاطمية ، احتط الناس فيه خططا وبنوا الدور والأسواق وأصبحت آهلة بالسكان. وترجع تسمية الحي بهذا الاسم إلى أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بنى به اصطبلات وطواحين ، وحمامات ، فكانت ترمى به مخلفات الحمامات أي الخرشتف التي جاء منها اسم الحي . وما زال هذا الحي يحتفظ حتى الآن بطابعه الشرقي القديم .

حي جاردن سيتي (٢)

كان هذا الحي من جملة أراضي بستان الخشاب الذي يقع بين مدينة القاهرة ومصر (الفسطاط والعسكر والقطائع) وكان هذا الموضع قبل ذلك مغمورا بمياه النيل . وفي سنة ٧١٤هـ انشأ السلطان

---

(١) النجوم الزاهرة : حـ ٤ ص ٤٧ .

(٢) النجوم الزاهرة : حـ ٩ ص ٥٦ ، ٨٠ ، ٨٢ (الحاشية) .

محمد بن قلاوون ميدانا فى هذا المكان عرف بالميدان الناصرى[1]. وغرست فيه الأشجار وأحيط بالبساتين والمتنزهات. وكان من أجمل الميادين لأنه يطل على النيل. وكان السلطان يركب إليه من القلعة دائماً كل يوم سبت فى الأيام الشديدة الحرارة بعد وفاء النيل ويستمر تردده على هذا الميدان مدة شهرين من كل عام، وكان خروجه إلى هذا الميدان فى موكب رسمى يعتبر بناء على وصف المقريزى له: استعراض لقوات السلطان وجنده: «إذ كانت تخرج معه فرق الخيالة من الأمراء واستجد ركوب الأوجاقية بكوافى الزركش على صفة الكاسات فوق رؤوسهم فيركب منهم اثنان بثوبى حرير أطلس أصفر وعلى رأس كل منهما كوفية ذهب وتحت كل واحد فرس أبيض بحلية ذهب ويسيران معاً بين يدى السلطان».

وفى سنة ٧٢٠ هـ أراد الناصر محمد بناء زريبة بجانب الجامع الطيبرسى فاحتاج فى بنائها إلى طين فركب إلى مكان قريب من الميدان الناصرى فى مكان كان يعرف باسم جنان الزهرى، ثم خربت وصار موضعها كوم تراب، وعين مكان الحفر. فلما تم

(١) المقريزى حـ ٣ ص ٣٢٥.

الحفر هناك ظهرت بركة عرفت بالبركة الناصرية . ونقل ماخرج منها من الطين إلى الزريبة ثم أجرى الماء إلى البركة من عند مورد البلاط ، فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة فحكر الناس حولها وبنوا عليها الدور العظيمة وما برح خط البركة الناصرية عامرا إلى أن كانت حوادث سنة ٨٠٦هـ فشرع الناس في هدم ما عليها من الدور فهدم كثير مما كان هناك وردمت البركة ولكن سرعان ما عادت الحياة إلى الحي مرة أخرى وعمر مرة أخرى بالدور والمساكن .

ويمكن تحديد بستان الخشاب اليوم بشارع المبتديان ومضرب النشاب والبرجاس إلى النيل من الشمال ومن الغرب نهر النيل ومن الجنوب مستشفى القصر العيني وشارع بستان فاضل وما في امتداده من الجهة الشرقية ، ومن الشرق شارع الخليج (بور سعيد الآن) .

وينقسم البستان إلى قسمين الشرقي منهما ويقع بين شارع المنيرة وشارع بور سعيد وكان يعرف بالمريس حيث كان يسكنه طائفة من السودان الذين يشربون المزر وهو نوع من (البوظة) يسميه أهل السودان المريسة . أما القسم الغربي فيقع بين شارع المنيرة وشاطىء النيل وكان يعرف بالميدان الناصري ، ومكانه

اليوم خط القصر العالى المسمى (جاردن سيتى) وقد خطط حى جاردن سيتى فى القرن العشرين .

حى بركة الفيل (١)

تقع هذه البركة فيما بين القاهرة ومصر وكانت مساحتها كبيرة جداً ولم يخط بها مبان . فلما أنشأ جوهر الصقلى مدينة القاهرة واختط خارج باب زويلة حارة السودان وحارة اليانسية ، أصبح لا يفصل هاتين الحارتين عن البركة غير فضاء . وفى سنة ٦٠٠ عمرت البركة وكثرت مبانيها وصارت مساكنها من أجمل مساكن مصر كلها . وقال ابن سعيد فى وصف القاهرة « وأعجبت فى ظاهرها (أى القاهرة) ببركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرح أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون بذلك منظر عجيب وفيها أقول :

انظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت
بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هى والأبصار التى ترمقها
كواكب قد أداروها على القمر

---

(١) المقريزى حـ ٣ ص ٢٦٢ ، صبح الأعشى حـ ٣ ص ٣٥٨ .

ونظرت إليها وقد قابلتها الشمس بالغدو فقلت :

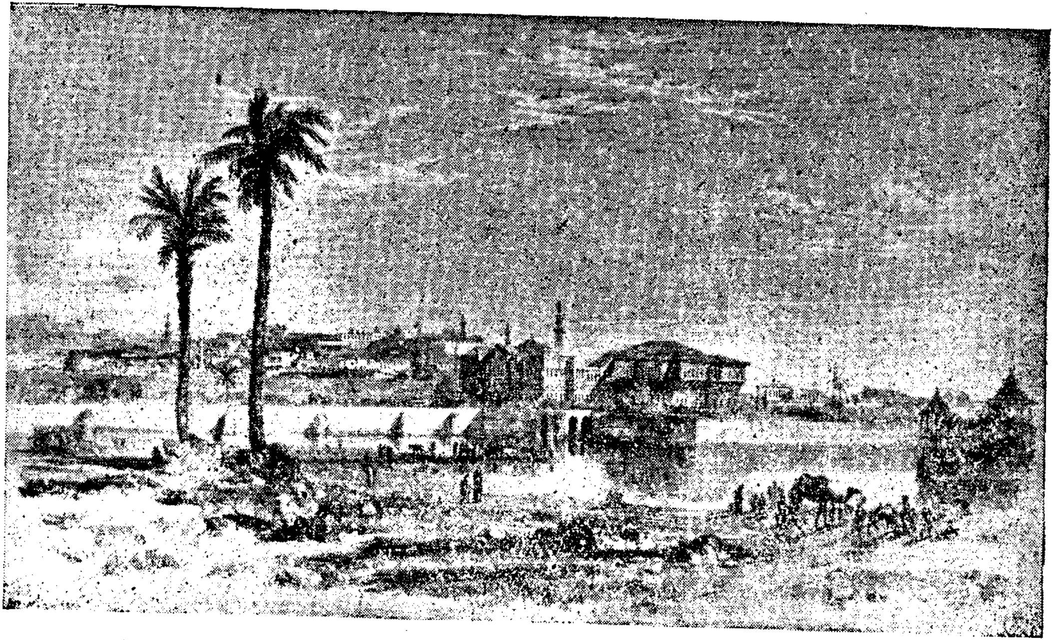
انظر إلى بركة الفيل التي نحرت
لها الغزالة نحرا من مطالعها
وخل طرفك محفوفا ببهجتها
تهيم وجدا وحبا فى بدائعها

وكان ماء النيل يدخل إلى بركة الفيل من الموضع الذى كان يعرف بالجسر الأعظم (ميدان السيدة زينب الآن) كما يأتى الماء اليها أيضا من الخليج الكبير من قنطرة كانت تعرف قديما باسم المجنونة . وظلت البركة باقية حتى ردمت فى القرن العشرين. (انظر لوحة رقم ٧)

وبحى بركة الفيل شارع يعرف باسم الحوض المرصود[١] ، نسبة إلى حوض من الحجر الصوان الأسود موضوع فى فجوة بسعته بالقرب من شارع قلعة الكبش وكان معدا للسقى فلما جاءت الحملة الفرنسية استولت عليه وأرسلته إلى باريس ولكن الإنجليز أخذوه قبل أن يصل وأرسلوه إلى لندن وهو محفوظ الآن بمتحف لندن .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ١٣٠ .



لوحة رقم (٧) تبين بركة الفيل كما كانت حتى سنة ١٨٤٠ م

ظاهرة المماليك الجراكسة

عرف سلاطين مصر ابتداء من السلطان برقوق باسم دولة المماليك الجراكسة نسبة إلى بلاد جركس موطن برقوق الأصلى ، وعلى الرغم مما كانت عليه البلاد من الفوضى والقلاقل الداخلية ، وما اتصف به المماليك الجراكسة من القسوة والشذوذ ، فإن مصر وصلت فى عهدهم إلى درجة فنية وحضارية لم تبلغها من قبل . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى ميلهم الشديد للفنون والعلوم والأدب والدين ، ولما كان لهم فى معيشتهم وفى مبانيهم وعماراتهم من ذوق سليم ورفاهية بالغة . وقد كان السلاطين برقوق والمؤيد وقايتباى مولعين بمجالس العلماء والأدباء ، وكان الظاهر تمربغا عالما بأصول اللغات والتاريخ والتصوف ، كما كانوا متمسكين بأحكام الدين فلا يشربون الخمر ويؤدون الفرائض كاملة غير منقوصة ويحجون إلى بيت الله الحرام . ويرجع كثير من المؤرخين السبب فى إقامة العمائر الكثيرة والمنشآت الدينية التى شيدت بالقاهرة فى عصر هؤلاء المماليك إلى

أمرين : الأول هو محاولة هؤلاء السلاطين التكفير عن ذنوبهم ببناء هذه المنشآت الدينية والثانى ولعله الأهم هو حالة اليسر والرخاء التى عمت البلاد نتيجة لمرور بضائع الهند عن طريق السويس إلى أوربا و بلاد الشرق وما كان يجبي على هذه البضائع من ضرائب وخلافها .

وشاع فى عصر الجراكسة عمل الزخرفة نقشا على الحجارة بدلا من عملها على الملاط أو (الجص) كما كان الحال من قبل . ويعتبر المنبر الحجرى الذى أقامه قايتباى فى مقام برقوق من أروع نماذج النقوش الحجرية فى القرن الخامس عشر الميلادى فقد قامت الحجارة فيه مقام الخشب فأجيد نقشها وتركيبها فبدت وكأنها قطعة من (الدنتلا) .

ولا يزال كثير من عمائر ومبانى هذا العصر باقيا حتى الآن يشهد بما وصل إليه فن المعمار فى ذلك العهد سواء أكان فى العمائر الدينية أم المدنية ، كما يدل على مبلغ ما وصلت إليه الفنون التطبيقية والزخرفية فى مصر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (القرن التاسع والعاشر الهجرى) وفيما يلى أهم تلك الآثار الباقية حتى الآن .

مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق :

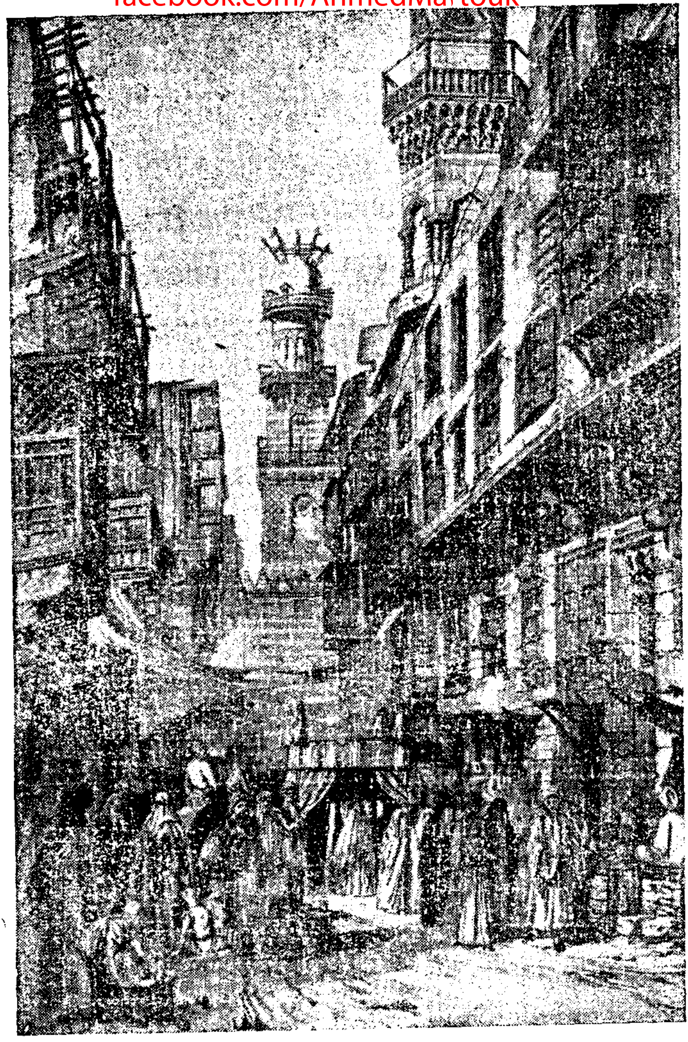
تولى الملك الظاهر برقوق كرسى السلطنة سنة ٧٨٤ هـ وكان كما وصفه كثير من المؤرخين شجاعا محبا للفروسية ، ميالا للعب بالرمح[١] ، كما قيل عنه إنه كان خيّـرا أبطل كثيرا من المكوس فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار الحاجيات المستوردة مما شجع كثيرا من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم على الاتجار مع مصر ، مما كان له أثره فى تنوع الطرز والأساليب الفنية فى البلاد . وقد اتسع ملكه حتى خطب باسمه فى ماردين والموصل وغيرها . ولما توفى الظاهر برقوق دفن بالصحراء مع مجموعة من العلماء والصالحين وأوصى أن تبنى لهم تربة وأن يلحق بها مسجد وخانقاه وقد نفذ ابنه الناصر فرج وصيته تلك .

وتعتبر مدرسة وخانقاه برقوق أولى المنشآت المعمارية فى دولة المماليك الجراكسة وقد بناها مكان خان[٢] الزكاة الذى أنشأه

(١) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٢١ .
(٢) الضوء اللامع جـ ٣ ص ١١ ، النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٤٠ ، نزهة النفوس والأبدان جـ ١ ص ٤٣ .

الناصر محمد بن قلاوون وهى ملاصقة لمدرسة الناصر محمد من الجهة البحرية على رقعة من أرض القصر الغربى الفاطمى ، وتكون هذه الواجهات المتلاصقة المطلة على شارع المعز لدين الله مجموعة من أجمل وأدق وأرشق المبانى والعمائر الأسلامية فى مصر فى العصور الوسطى (انظر لوحة رقم ٨) .

أما تخطيط المدرسة فهو كبقية المدارس فهى تتكون من صحن مكشوف بوسطه فسقية عليها قبة مقامة على ثمانية أعمدة وتحيط به أربعة إيوانات أهمها إيوان القبلة فقد فرشت أرضه بالرخام وجانباه مؤزران بالرخام وبصدره يوجد المحراب . وهو من أدق أعمال الرخام فى هذه المدرسة فقد لبس الرخام الأسود وشكل على رسم الشرفات على أرضية بيضاء مرصعة بالفصوص الفيروزية والحمراء والصدفية . وعلى جانبي هذا الإيوان يوجد إيوانان صغيران مقامان على أعمدة جرانيتية ضخمة . والإيوانان يقسمان الرواق الشرقى الكبير إلى ثلاثة أقسام حلى سقفاها بمقرنصات مذهبة ، أما سقف القسم الأوسط فهو مستوى يتوسطه صرة مذهبة ونقوش أخرى مذهبة غاية فى الدقة والإبداع . وبهذا الإيوان منبر بسيط وكذا دكة المبلغ وهى من الرخام كما يوجد به كرسى مصحف من الخشب زخرفت جوانبه



وحة رقم (٨) تبين شارع بن القصرين (المعز حاليا) مع مئذنة السلطان قلاوون

بحشوات على شكل الأطباق النجمية المطعمة بالعاج . وفى الجهة البحرية لهذا الإيوان توجد قبة يتوسطها قبر . وهذه القبة غنية زخارفها فى الوزرات الرخامية فقد ارتفعت الوزرة فى الجدران الأربعة إلى عقد المحراب ، أما الإيوان الغربى فيه بابان أحدهما يؤدى إلى الخانقاه التى لبست أعتابها بممرات رخامية ولا تزال بقاياها موجودة حتى الآن .

ومما يسترعى النظر فى هذه المدرسة أن المعمار ابتكر فى زخرفة جدرانها ومناراتها وكذا فى أبوابها و نوافذها أساليب لم تكن موجودة من قبل إذ كسى الواجهة الرئيسية المشرفة على الشارع وهى واجهة عالية مبنية من الحجر ، بالرخام الملون ذى الرسوم الجميلة الدقيقة ، كذلك زخرفت مئذنة المدرسة المكونة من ثلاث طبقات بتلبيس الرخام فى بدن الطبقة الثانية وهى أقدم أثر بمصر استخدم فيه الرخام لزخرفة المآذن . أما نوافذ الواجهة فهى من النحاس المفرغ بأشكال هندسية ومبانيه غاية فى الإبداع ، وتعتبر هذه الشبابيك النحاسية النموذج الثالث فى مصر للنحاس المصبوب ، إذ وجد الأول فى قبة الصالح نجم الدين والثانى فى المدرسة الطيبرسية بالأزهر . وقد غطيت هذه الشبابيك بعصاريع من الخشب الخرط ذى الزخارف الهندسية البديعة

التكوين . وهى أيضا من النماذج الأثرية المعدودة إذ كان الشائع أن التغطية بالجص المفرغ .

تربة برقوق :

يكفى هذه التربة أو هذا الأثر فخرا أن صورتها استعملت رمزا لعملتنا الورقية التى يصدرها البنك الأهلى على الجنيه المصرى ، بنى هذه التربة ابن الظاهر برقوق السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج ، وقد استغرق بناؤها اثنتى عشرة سنة من سنة (٨٠١ – ٨١٣ هـ) وقد صنع تصميم هذه التربة بحيث تصلح لعدة أغراض ، فإلى جانب كونها تربة لعائلة الظاهر برقوق فقد أعدت أيضا لتكون خانقاه لتعبد الصوفية ، ومدرسة لتدريس المذاهب الأربعة والعلوم الشرعية ومسجدا جامعا لتأدية فريضة الصلاة . فهى لذلك تعد أكبر المنابر الأسلامية فى مصر سواء من حيث المساحة أو ضخامة البناء هذا بالإضافة إلى أهميتها الروحية والأدبية .

وبالواجهة الغربية للمقبرة توجد مئذنتان جميلتان ، أما الواجهة الشرقية فتزينها قبتان كبيرتان نقشت عليهما من الخارج زخارف بنائية وهندسية محفورة فى الحجر تعد آية من آيات الدقة والإبداع

فى النقوش الحجرية . ويتوسط القبتين قبة ثالثة تعلو المحراب .

وهذه المقبرة موجودة فى جبانة القاهرة البحرية المتعددة الأسماء فالبعض يطلق عليها اسم قرافة الغفير نسبة إلى أن خفير نقطة تحصيل عوائد الدخولية كان يسكن بهذه الجهة فى قبة الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه الأشرفى فى القرن السادس عشر الميلادى فاشتهرت به وعرفت باسم قرافة الغفير ، كما كانت تعرف باسم مقابر الخلفاء وهى تسمية خاطئة إذ من المقطوع به أنه لا يوجد بهذه المنطقة مقبرة واحدة لخليفة من خلفاء بنى أمية وخلفاء العباسيين والفاطميين ، على أنه من الجائز أن تكون هذه التسمية نسبة إلى وجود مقبرة لأحد من سلالة الخلفاء العباسيين الذين أتوا إلى مصر بعد سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦ ه . أما الاسم الثالث لهذه الجبانة فهو قرافة المماليك ، وهو أصح الأسماء وأكثرها مطابقة للواقع لأنها تحتوى على كثير من مقابر سلاطين المماليك .

وقد دفن بتربة برقوق هذه ، الظاهر برقوق مؤسس أسرة برقوق وابنه المنصور عبد العزيز وذلك فى القبة البحرية أما القبة القبلية فقد خصصت لنساء الأسرة فدفنت بها (خوند شقرا) بنت الناصر فرج وكذا (خوند حرىز) زوجة الظاهر برقوق .

مسجد المؤيد شيخ :

كان السلطان الملك المؤيد شيخ الذى تولى ملك مصر سنة ٨١٥ هـ مغرما بالعمارة ، فقد أنشأ مئذنة بالجامع الأزهر وجدد مسجد المقياس بالروضة وأنشأ كثيراً من المساجد والمكاتب والأسبلة والمناظر بمصر والشام ، كما بنى خانقاه الخردية إلا أنه لم يبق من هذه المنشآت الكثيرة سوى بقايا سبيل ومصلى بالقلعة[1]، ومسجد المؤيد والبيمارستان المؤيدى الذى يقع بالقرب من القلعة بسكة الكومى بالمحجر بقسم الخليفة . وكان البيمارستان تعالج فيه جميع الأمراض البدنية والعظمية كما كان يدرس فيه الطب. أما المسجد فهو أهم آثاره على الإطلاق وقد بنى مكان مسجد عرف باسم (خزانة شمائل) كان المؤيد قد سجن فيه وقت أن كان أميرا وقاسى فيه من الشدائد ماجعله ينذر أن نجاه الله تعالى من هذا السجن ليبنين مكانه مسجدا . فلما ولى ملك مصر وفى بنذره ، فاشترى قيسارية الأمير سنقر الأشقر وأضاف إليها خزانة شمائل (السجن) وعدة دور وحارات ليقيم مكانها المسجد . وقد استمرت عمارة هذا المسجد مدة ست سنوات

(١) الضوء اللامع : حـ٣ ص ٣١٠ ، نزهة النفوس والأبدان حـ٢ ص ٥٧ .

إذبديء العمل فيه سنة ٨١٨ﻫ وانتهى سنة ٨٢٤ﻫ وبلغت تكاليف البناء نحو سبعين ألف دينار ، ومع ذلك فإن كثيرا من ملحقات الجامع لم يكن قد شرع فى بنائها مثل بيوت الصوفية بالخانقاه وكذا القبة القبلية .

وللمسجد أربع وجهات ، الشرقية منها هى الرئيسية وهى محتفظة بكل تفاصيلها ، وهى واجهة مرتفعة حليت أعتاب نوافذها ومزرراتها بالرخام كما غطى كل شباكين بمقرنص واحد تعددت حطاته ، وفى الطرف البحرى لهذه الواجهة يوجد المدخل الرئيسى وله سلم مزدوج ، وهو باب شاهق الارتفاع كسى بالرخام الملون وزخرف بالمقرنصات وقد ركب على الباب مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس ، وهما من أجمل وأدق المصاريع النحاسية نقلهما المؤيد شيخ من مدرسة السلطان حسن . ويبلغ ارتفاع كل منهما ستة أمتار وقد ملئت هذه المساحة الكبيرة من النحاس بزخارف نباتية وهندسية على شكل أطباق نجمية محفورة وبارزة وقدكفتت عناصر كثيرة من هذه الزخارف وكذا اسم السلطان حسن بالذهب . ويعلل بعض المؤرخين السبب فى نقل باب السلطان حسن ، بأن السلطان برقوق كان قد سد باب مدرسة السلطان حسن فكان الباب غير منتفع به وأن المؤيد شيخ فى مقابل أخذه للباب

وقف على مدرسة السلطان حسن قـــرية قها بالقليوبية .

وقد كان للجامع أربعة أيوانات تحيط بالصحن ويتكون كل من الايوان الغربي والبحرى والقبلى من رواقين وقد تخربت هذه الإيوانات ولم يبق سوى الأيوان الشرقى الذى تغمره الزخارف من الأرض حتى السقف ، فقد كسى الجدار بالرخام الملون حتى ارتفاع المحراب ، ثم يعلو ذلك شبابيك جصية مخرمة جميلة الزخرفة والنقوش ، ويكتنف هذه الشبابيك مستطيلات منقوشة ومذهبة ويحيط بها شريطان من الكتابة التى تحتوى على آيات قرآنية ، أحدها بالخط الثلث المملوكى بحروف مذهبة والشريط الثانى بالخط الكوفى بحروف سوداء على أرضية مذهبة . ويتوسط الإيوان الشرقى محراب مكسو بالرخام المتعدد الألوان وبجوار المحراب منبر خشبي دقيق الصنع طعست بعض حشواته بالعاج كما زخـــرف البعض الآخر بطريقة اللاكيه المعروفة (بالزرنشان) .

ومما يذكر عن ورع الملك مؤيد شيخ وتواضعه أنه أمر الخطباء عندما يدعون للسلطان على المنبر يوم الجمعة أن ينزلوا درجة ثم يدعوا له حتى لايكون ذكره فى الموضع الذى يذكر فيه اسم الله واسم نبيه .

وقد بنى جامع المؤيد ملاصقا لباب زويلة ، ولذلك فقد اتخذ من برجي الباب قاعدتان لمئذنتيه ، وهما منارتان رشيقتان تتكون كل منهما من ثلاث طبقات حليت بالنقوش والكتابات ، وتقوم الطبقة الثالثة على عمد رشيقة .

ويعد مسجد المؤيد من الروائع المعمارية فى دولة المماليك الجراكسة ، فقد وصفه السخاوى بأنه لم يعمر فى الإسلام أكثر منه زخرفة ولا أحسن ترخيما بعد الجامع الأموى . ويقول عنه المقريزى : « إنه الجامع لمحاسن البنيان الشاهد بفخامة أركانه وضخامة بنيانه أن منشئه سيد ملوك الزمان . يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس وإيوان كسرى أنوشروان ويستصغر من تأمل بديع اسطوانه الخورنق وقصر غمدان [1] » .

ولم يقتصر الأمر فى هذا العهد على العمائر الدينية فحسب بل تعداها إلى المبانى المدنية كالحمامات والقصور والخانات والفنادق والوكالات وما إليها ، وسنعرض هنا فى إيجاز إلى أهم ما بقى من تلك العمائر .

---

(١) المقريزى ج ٤ ص ٣٦ .

مقعد ماماى (بيت القاضى)(١)

من أهم الدور الباقيـة من عصر المماليك الجراكسة منزل ماماى الذى أنشاه الأمير ماماى السيفى سنة ٩٠١ هـ فى عهـد السلطان الناصر ابن قايتباى وقد تخلف عن هذا المنزل المقعد فقط، وكلمة المقعد تطلق عادة على المـكان المخصص لاستقبال الرجل فى البيوت فى مصر منذ العصور الوسطى واستمرت حتى القرن التاسع عشر . وتتـكون واجهة المقعد من باب يعلوه عقد مرتفع وقد زخرف هذا العقد بمقرنصات جميلة ودقيقة . أما باقى الواجهة فمـكشوفة كلها وهى تطل على الفضاء المعروف الآن باسم ميدان بيت القاضى وإن كان من المرجح أن هذا الفضاء يشغل جزء منه على الأقل فناء المنزل الذى يكون عادة مكشوفاً كما نستدل على ذلك من البيوت التى ما تزال قائمة .

وتنقسم الواجهة إلى ثلاثة عقود ترتـكز على أربعة أعمدة تنتهى بتيجان على شـكل زهرة اللوتس . أما سقف المقعد فهو شاهق الارتفاع وحافل بالزخارف المتعـددة الألوان والنقوش والتذهيب . وفى أسفل الجزء العلوى من المقعد توجد عدة غرف

(١) الخطط التوفيقية حـ ٦ ص ٨٣ .

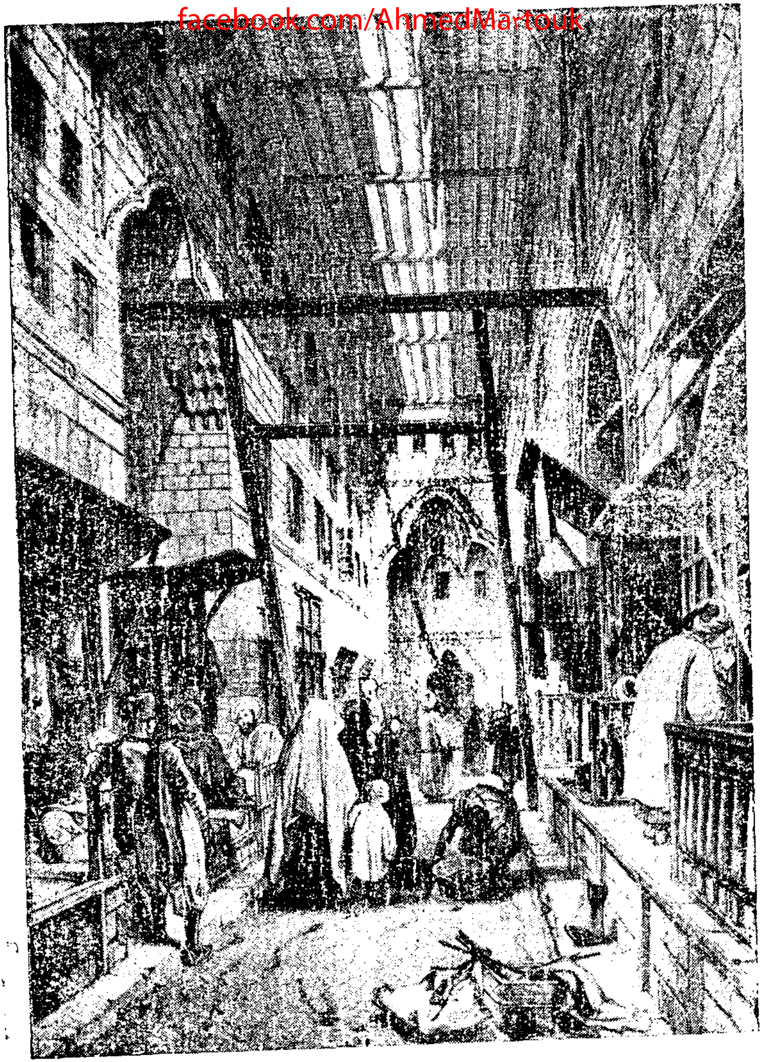
مقبية وخالية من النوافذ ويطلق عليها عادة اسم حواصل . وقد اتخذ هذا المقعد فى العصر العثمانى مقراً للمحكمة الشرعية . ومنذ ذلك الوقت عرف باسم بيت القاضى وأطلق على الرحبة التى أمامه ميدان بيت القاضي بالنحاسين التابع لقسم الجمالية .

هذا وقد ذكر لنا المقريزى وغيره من المؤرخين ما كانت عليه مصر من التقدم والعمران فى العصر المملوكى عامة الذى بلغت مدته نحو ٢٧٥ سنه كثرت فيها العمارات وارتقت فنونها وتقدمت زخارفها ونقوشها تقدما كبيراً . وليس هذا بالشيء الغريب فمعظم سلاطين المماليك أجانب أتوا من بلاد متعددة وجنسيات مختلفة ولهذه البلاد حضارتها وفنونها فكان من الطبيعى أنه عندما يعتلى المملوك عرش السلطنة أن ينشر حضارة بلده وفنونها بل وكثيراً ما كان السلطان منهم يستدعى المهرة من فنانى قومه وأصحاب الصناعات والحرف الممتازين منهم الأمر الذى جعل مدينة القاهرة أشبه بالبوتقة التى صهرت فيها عناصر الفنون المختلفة وأخرجت فناً غنياً بعناصره وطرزه وأساليبه بعد أن طبعته بطابعها المصرى المميز . وقد ساعد على نشاط الحركة الفنية والمعمارية انتعاش الحالة الاقتصادية ورواج الحركة التجارية فقد لعبت القاهرة دوراً عظيما فى التجارة فى العصر المملوكى ،

إذ كانت ملتقى تجارة الشرق والغرب مما عاد على أهلها وتجارها بالأرباح الطائلة . وكان لا بد لهذا النشاط التجارى من إقامة الأسواق والوكالات والخانات والفنادق وقد حفلت القاهرة بمثل هذه المنشآت التى ترمى كلها إلى غرض واحد ، هو توفير الأماكن للمواطنين لعرض بضائعهم سواء المحلية منها أو المستوردة ، وذلك فى الأسواق والخانات . وفى نفس الوقت توفير أسباب الراحة للتجار بإيجاد المحلات اللازمة لعرض بضائعهم ولإيوائهم وإيواء دوابهم وذلك فى الوكالات والفنادق . وقد بقى كثير من تلك المنشآت حتى القرن التاسع عشر فقد ذكر لين بول الذى زار مصر فى سنة ١٨٣٥م أنه كان بمدينة القاهرة ٢٠٠ وكالة للتجارة . ولا يزال باقياً منها حتى الآن عدد قليل مثل خان الخليلى وخان الحمزاوى وخان جعفر ووكالة قوصون والنحاسين ووكالة الغورى وسوق الغورية والسكرية والخيمية والفحامين وسوق السلاح . وقد بلغ بعض هذه الخانات والوكالات فى القرن العشرين من الشهرة أن أصبح مقصد السياح والأجانب الذين يفدون من أقاصى المعمورة لزيارته وشراء منتجاته التى لا تزال محتفظة إلى حد كبير بالتراث القديم ، ومثال ذلك خان الخليلى الذى أنشأه الأمير جهاركس الخليلى

أحد أمراء السلطان برقوق وكان يشغل وظيفة أمير أخور (أى أمير الخيـل) وكان موضع هذا السوق ضريح القصور الفاطمية (فى شارع المعز لدين الله الآن) . ولما كان الأمير جهاركس متعصباً ضد الشيعية مذهب الفاطميين ، فقد أخرج عظام الموتى من تلك المنطقة وألقاها بكيمان البرقية وأقام مكان الضريح الخان الذى عرف باسمه . وكان يعرض بهذا الخان المنتجات المصرية الأصيلة مثل المعادن المكفتة بالفضة والذهب والأخشاب المطعمة بالعاج والصدف وأقمشة الوشى والديباج والزجاج المموه بالمينا وصناعة الجلود والخيام والسجاد المعقود والمتعدد الألوان وكثير غيرها مما لا يتسع المجال لحصرها . وفى عام ٩١٧ هـ هدمه السلطان الغورى وجدده . (انظر لوحة رقم ٩) .

وتعتبر وكالة الغورى من أحسن الأمثلة للوكالات والخانات فى القرن السادس عشر، فقد أنشأها السلطان الغورى سنة ١٥١٢م وكان من حسن حظ هذه الوكالة أن رممتها مصلحة الآثار ثم شملتها وزارة الثقافة والإرشاد القومى بالعناية فأعادت إليها الحياة مرة أخرى بعد أن جمعت فيها كبار الصناع وأصحاب المواهب لكى يمارسوا الصناعات والحرف التى كانت تزاول فى مصر فى



لوحة رقم (٩) تبين خان الخليلي كما كان سنة ١٨٤٠ م

العصور الوسطى وبذلك تكون وزارة الثقافة والإرشاد القومى قد حافظت على تراث عزيز علينا كاد يندثر . والوكالة تحتوى على فناء كبير مكشوف تتوسطه فسقية وفى هذا الفناء كانت تعقد الصفقات التجارية وهو فى هذه الحالة يشبه إلى حد ما (البورصة التجارية). ويحيط بالفناء عدد كبير من الغرف يبلغ عددها ٣١ غرفة ذات السقوف المعقودة ويتقدم هذه الغرف صف من البوائك . وبالفناء سلم يصعد به الطابق الثانى الذى يتكون من ٢٨ غرفة معقودة ويتقدمها صف من البوائك . وقد كانت غرف الطابق الأول والثانى تستعمل كمخازن يضع فيها التجار الأجانب بضاعتهم وتجارتهم . أما البوائك فكانت تعرض فيها البضائع ، كما يوجد بالفناء باب يؤدى إلى دهليز به دورات للمياه ومن هذا الدهليز نخرج إلى فناء صغير مكشوف يتخذه التجار الأجانب كحظيرة لدوابهم ولحيواناتهم . وتحتوى الوكالة على طابقين آخرين لا يصعد إليهما من داخل الوكالة كما هو الحال بالنسبة للدور الأول بل يصعد إليهما من باب خارجى مستقل . ويتكون هذان الطابقان من ٢٨ بيتاً كل منهما مستقل تمام الاستقلال عن الآخر وكل بيت يتكون من مجموعة من الغرف ومن طابقين . وفى كل بيت مشربيات يطل بعضها على فناء الوكالة والبعض الآخر يطل

على الشارع . وهذه البيوت كانت معدة لمبيت التجار الأجانب وهى تشبه أحدث ما وصل إليه فن الفنادق الآن . وتقع الوكالة الآن فى حارة التبليطة بحى الأزهر .

وفى هذا العهد أى فى القرن الخامس عشر والسادس عشر، ظهرت أحياء جديدة اشتهرت بفخامة مبانيها ورواج أسواقها واتساع بساتينها ومتنزهاتها . وما زال كثير من تلك الأحياء يحتفظ باسمه حتى الآن . وفيما يلى سنذكر نبذة وجيزة عن تاريخ أهم تلك الأحياء :

حى القبة :(١)

— عرف هذا الحى بهذا الاسم نسبة إلى القبة التى أنشأها الأمير يشبك (سنة ٨٨٤هـ) وهو من أمراء السلطان قايتباى . وكان السلطان الغورى كثيراً ما يتردد عليها وينزل بها للنزهة فنسبت خطأ إليه . وفى القرن السابع عشر بنى الناس دوراً كثيرة حول هذه القبة فعرفت المنطقة باسم القبة . ثم اتسعت المنطقة بعد أن كثرت مبانيها وازدحمت بساكنيها فأصبحت تشمل حى حدائق

---

(١) القاموس الجغرافى : محمد رمزى حـ ١ ص ١٥ .

القبة وحمامات وسراى القبة وكوبرى القبة وكل منها يعد من ضواحى القاهرة .

القبة الفداوية : (١)

عرفت القبة الفداوية بهذا الاسم نسبة إلى طائفة من الشيعة عرفوا بالفداوية وذلك لاسترخاصهم الحياة فى سبيل سيادتهم الروحية وقد عنى بهم سلاطين المماليك وخصصوا لهم المرتبات . وقد أنشأ لهم هذه القبة الأمير يشبك أيضاً كما أنشأ بجوارها مدرسة وغرس حولها الحدائق والبساتين .

الأزبكية :

كانت المنطقة عبارة عن أرض زراعية تقع إلى الجنوب من خط المقس (ميدان باب الحديد الحالى) وكانت مياه النيل تغمر تلك الأراضى سنويا وكان يتخلف بها بعدالفيضان بركة . وكانت أرض هذا الحى عامرة بالبساتين والمناظر وكانت تسمى حينذاك باسم مناظر اللوق (٢) . وفى عهد الدولة الأخشيدية حفر كافور

---

(١) القاموس الجغرافى .

(٢) الخطط التوفيقية حـ ٣ ص ٦٦ ، ١١٠، المقريزى حـ٢ ص ١٩٠.

فى تلك المنطقة ترعة لكى تروى البستان المقسى الذى بقى حتى عهد الخليفة الظاهر الفاطمى . وكان ماء الترعة يصب فى البركة سالفة الذكر وقد عرفت هذه الترعة باسم خليج الذكر لأن أحد أمراء السلطان الظاهر بيبرس يدعى شمس الدين الذكر قام بتوسيعها وتطهيرها فنسبت إليه وقد بنى فوق هذه الترعة قنطرة وفوقها دكة لكى يجلس عليها الناس أثناء تنزههم فى بستان المقس، وقد عرف المكان باسم قنطرة الدكة ولا يزال شارع وميدان قنطرة الدكة[1] يحملان اسم هذا المكان، وقد كانت هذه المنطقة قبل ذلك عبارة عن قرية صغيرة تعرف باسم أم دنين .

وفى عهد السلطان قايتباى كانت تلك المنطقة مهملة فتحولت إلى تلال وكيان فى أرض مماد بها سنط وأشجار اثل فقام قائده أزبك بتعمير المنطقة ومن ثم فقد أخذت البركة وكذا المنطقة اسم معمرها وعرفت بالأزبكية . وفى عهد الخديو إسماعيل سنة ١٨٦٧ ردمت بركة الأزبكية بطمى النيل بارتفاع مترين وأنشئت فيها حديقة الأزبكية وغرست فيها الأشجار النادرة المستوردة من جميع أنحاء العالم وأحيطت بسور مرتفع وفتح بها أربعة أبواب وكانت تبلغ مساحتها عشرين فدانا . أما باقى مساحة أرض

(١) المقريزى جـ٣ ، ص٢٤٦ .

البركة فقد أقيمت عليها دار الأوبرا الحالية وميدان إبراهيم باشا والشوارع المحيطة بها من جهة الشرق ذات البوائك .

العباسية :

(أرض الطبالة[1]) كانت حدود هذه المنطقة من الشمال شارع الظاهر فشارع وقف الخربوطلي وما في امتداده حتى يتقابل مع شارع مهمشة ، ومن الغرب بشارع غمرة إلى محطة كوبرى الليمون فميدان محطة مصر حيث كان يمر النيل في العصر الفاطمى ، ومن الجنوب شارع الفجالة وسكة الفجالة ومن الشرق شارع بور سعيد (الخليج المصرى سابقاً) وكانت تقدر مساحة تلك المنطقة بحوالى مائتى فدان في عهد الخليفة المستنصر . وقد عرفت تلك المنطقة باسم أرض الطبالة .

أما السبب في هذه التسمية فيرجع إلى ما حدث في العراق من خلاف شديد بين الأمير أبى الحارث أرسلان البساسيرى والخليفة القائم بأمر الله العباسى مما دعا البساسيرى إلى الخروج من بغداد والانتماء إلى الدولة الفاطمية الشيعية المذهب

---

(١) صبح الأعشى حـ ٣ ص ٣٥٦ ، الخطط التوفيقية حـ٣ ص ٧٣، المقريزى حـ ٣ ص ٢٠٣

فامده الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بالجيش والزاد والعتاد حتى تمكن من الاستيلاء على بغداد وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة بنى العباس وأقام الدولة الفاطمية وأرسل كل تحف قصر الخلافة فى بغداد والغنائم النفيسة إلى القاهرة ، فسر المستنصر سروراً عظيما وزينت مدينة القاهرة بهذا النصر العظيم وفرح أهل مصر وابتهجوا بهذا الانتصار فوقفت السيدة (نسب وكانت طبالة المستنصر وأنشدت وهى واقفة تحت قصر الخلافة ومعها بطاناتها :

يابنى العباس ردوا ملك الأمر معد
ملككم ملك معار والعوارى تسترد

فأعجب المستنصر بها أيما إعجاب وطلب منها أن (تمنى عليه) فسألت أن تقطع هذه الأرض المجاورة للمقس فأقطعها إياها وسميت منذ ذلك الحين باسم أرض الطبالة . وقد عمرت تلك الأراضى وبنيت بها الدور والعمائر وكانت من أجمل وأغنى خطط القاهرة ، ثم ضربت هذه المنطقة سنة ٦٩٦ ﻫ عند ما انتاب البلاد الوباء والغلاء وكان ذلك فى سلطنة الملك العادل وبقيت كذلك حتى سنة ٧١١ﻫ حينما شرع الناس فى سكناها وزاد الإقبال عليها عندما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى سنة ٧٢٥ ﻫ

ثم وصل الخليج ببركة الطوابين التى عرفت فيما بعد ببركة الرطلى، ثم أقيم على الخليج قنطرة عرفت بقنطر الحاجب وبذلك أعيدت الحياة إلى أرض الطبالة كما كانت فى العصر الفاطمى بل وأكثر وأصبحت بها عدة حارات منها حارة العرب وحارة الأكراد وغيرها واستمرت أرض الطبالة غاصة بساكنيها عامرة بأسواقها وأراضيها الزراعية حتى اندثرت تماماً سنة ٨٠٦ ﻫ وصارت خرابا يبابا :

وفى سنة ١٨٤٩ أنشأ الوالى عباس باشا الأول تكنات للجيش فى المنطقة الواقعة الآن تجاه قصر الزعفران ، ثم تبعه الأهالى والتجار فى تعمير المنطقة التى أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم العباسية نسبة إلى عباس الأول وبعد ذلك أنشأ ضباط الجيش دورهم فى هذه الجهة وكانت الأرض تمنح مجانا لمن أراد البناء فاتسع العمران حتى شمل أرض الطبالة تقريباً .

الفجالة(١) :

وفى القرن الثانى عشر للهجرة كان الجزء الغربى من أرض الطبالة أرضاً زراعية تزرع فيها الخضروات وبخاصة الفجل

(١) الخطط التوفيقية : ﺟ ٣ ص ٧٠ ، للقريزى .

فاشتهرت المنطقة باسم غيط الفجل . ولما امتدت المبانى إلى تلك الجهة سمى الشارع المجاور لغيط الفجل باسم شارع الفجالة وكان هذا الشارع يسير موازيا لسور القاهرة القديمة الممتد من المقس (باب الحديد) إلى باب الشعرية . ولما جاءت الحملة الفرنسية مهدت أرض هذا الشارع فقد كان يصعب المرور بها فسويت الأرض من قنطرة باب الحديد إلى قنطرة العدوى .

الزمالك :

ظهرت فى القرن الخامس عشر جزيرتان منفصلتان فى مكان جزيرة الزمالك الحالية وكانت الجزيرة الجنوبية منهما تعرف باسم جزيرة أروى [1] وباسم الجزيرة الوسطى وذلك لأنها تقع بين جزيرة الروضة وبولاق وبين بر القاهرة وبر الجيزة ولم ينحسر عنها الماء إلا بعد سنة ٧٠٠ هـ . فبنى الناس بها الدور وأقاموا الأسواق وغرسوا البساتين وشيدوا المساجد وحفروا الآبار وصارت من أحسن وأجمل متنزهات القاهرة .

أما الجزيرة الشمالية فقد ظهرت فى النيل سنة ٧٤٧هـ ما بين بولاق والجزيرة الوسطى (اروى) وسمتها العامة باسم (حليمة)

---

(١) المقريزى جـ ٣ ص ٣٠٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٢٦ .

ونصبوا فيها عدة أخصاص وزرعوا حولها أشجار الفاكهه وبعض أنواع الخضروات ويقول المقريزى إن ثمن الخص منها بلغ ثلاثة آلاف درهم نقرة، أى ما يساوى مائة وخمسين جنيها مصريا وأقام أهل الخلاعة والمجون فى تلك الأخصاص وتهتكوا بكل أنواع المحرمات وكثر تردد الناس على هذه الجزيرة حتى ارتفع سعر أراضيها وبلغ ثمن القصبة عشرين درهما نقرة، ووصل إيجار الفدان فى ستة أشهر ثمانية آلاف درهم نقرة (٤٠٠ جنيه مصرى) وعلى ذلك يكون إيجاره فى السنة ستة عشر ألف درهم نقرة (أى ٨٠٠ جنيه) وأتلف الناس هناك كثيراً من الأموال وجاهروا بكل ما هو قبيح مما دعا الأمير أرغون العلائى وزير الملك الكامل شعبان ابن محمد بن قلاوون إلى هدم هذه الأخصاص وحرقها وإراقة الخمور . . وبذلك تدمرت هذه الجزيرة .

وفى عهد الحملة الفرنسية ظهرت جزير ثالثة بالقرب من الجزيرتين السابقتين وأصبحت الجزائر الثلاث تعرف بالأسماء الآتية جزيرة عازار وجزيرة بولاق الكبيرة وجزيرة مصطفى أغا. ثم اتصلت هذه الجزائر ببعضها وأصبحت جزيرة واحدة عرفت باسم جزيرة بولاق لمواجهتها لقرية بولاق .

وفى سنة ١٨٣٠ أقام محمد على قصراً كبيراً بين المزارع

فى الجهة الشمالية من أرض الجزيرة واتخذه للنزهة . وقد أقيم بالقرب من القصر أخصاص وعشش عدة يصطاف فيها رجال الحاشية والحرس وعرفت المنطقة منذ ذلك الوقت باسم (الزمالك) . والزمالك كلمة تركية معناها العشش المصنوعة من البوص أو القش لإقامة العسكر بدلا من الخيام .

حى الغورية(١)

وسمى بهذا الاسم نسبة إلى السلطان الغورى آخر ملوك دولة المماليك الجراكسة ، وقد كان هذا الحى يعرف قبل ذلك باسم (سوق الشربين) إذ كانت به حوانيت لصناعة وحياكة الخلع التى ينعم بها السلطان على الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة فى المواسم والأعياد . وقد أنشأ الغورى مجموعة كبيرة من المبانى بهذا الحى تتكون من مدرسة ينتهى طرفها القبلى بمنارة مربعة شاهقة الارتفاع تنتهى بدورة مكونة من أربعة رؤوس وبجانب المدرسة قبة كانت مكسوة بالقاشانى الأزرق ويقوم فى الطرف البحرى لقبة الغورى سبيل وكتاب . وعند نهاية السبيل منزل

---

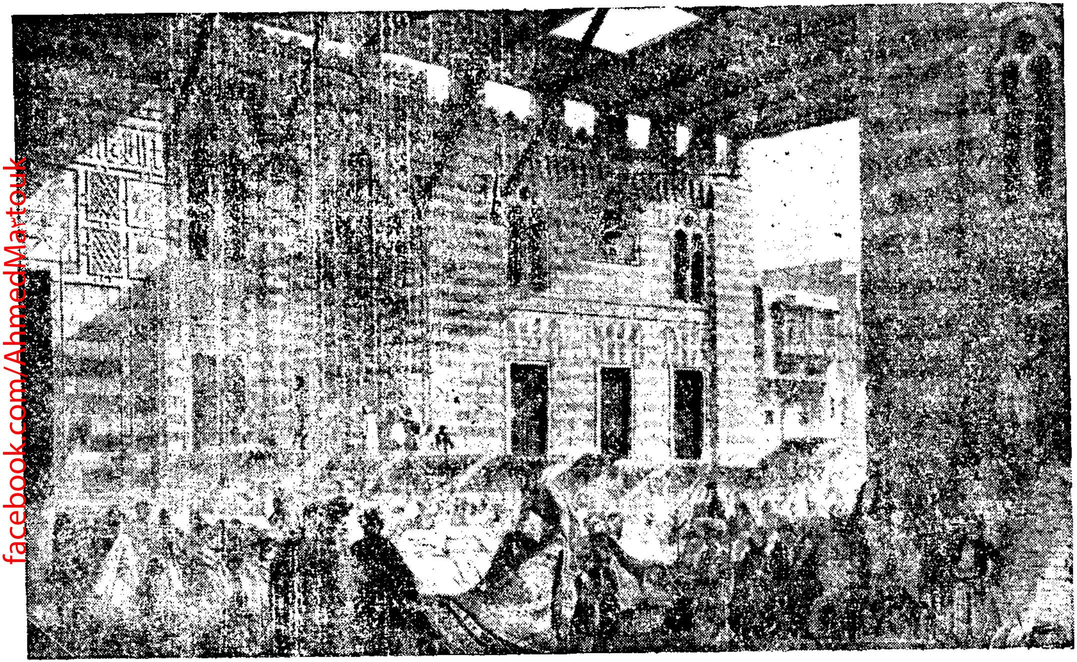
(١) الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٣٤ .

كان معدا لسكنى شيخ المدرسة . وتجىء بعد ذلك وكالة كبيرة شغلت شارع التبليطة ويقع خلفها حمام معروف بحمام العرائس وقد تم بناء هذه المجموعة فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى . (انظر لوحة رقم ١٠) .

كما أعاد الغورى بناء منطقة خان الخليلى التى سبق الإشارة إليها .

ولا تزال عمائر الجراكسة تجتذب إليها المعماريين والمصورين والزائرين من نواحى العالم وذلك لضخامتها الهائلة ومآذنها الرشيقة الدقيقة وقبابها المزركشة ومقرنصاتها الكثيرة على المداخل وكرانيشها المصطفة وفسقياتها الرخامية وقبلاتها الزاهية المذهبة .

وبسقوط دولة المماليك واستيلاء السلطان سليم الأول التركى على مصر سنة ١٥١٧ م ، تحولت القاهرة من عاصمة امبراطورية مترامية الأطراف إلى عاصمة ولاية من ولايات الدولة العثمانية . وعلى ذلك يمكن أن تعتبر فترة القرون الثلاثة التى خضعت فيها مصر للدولة العثمانية الحد الفاصل بين القاهرة القديمة والقاهرة الحديثة التى بدأت فى القرن التاسع عشر الميلادى .



لوحة رقم (١٠) تبين حى الغورية كما كان سنة ١٨٤٠ م

القاهرة في العصر العثماني

قضى الأمر واستولى سليم الأول العثمانى على مصر سنة ١٥١٧م ، فتحولت القاهرة من عاصمة امبراطورية مترامية الأطراف إلى عاصمة ولاية من الولايات التابعة للقسطنطينية . وكان من المقدر لهذه العاصمة أن تظل بعد هذا التاريخ ثلاثة قرون تحت حكم الولاة العثمانيين المزعزع تتقاذفها الأهواء وتلعب بمقاديرها الأحداث السياسية حتى الحرب العالمية الأولى .

أقام سليم الأول بالقاهرة ثمانية شهور بعد فتح مصر ، وضع فى أثنائها نظاما خاصا لحكم البلاد وذلك لكيلا يطمع أحد من حكامها فى الاستقلال بها منتهزا فرصة بعدها عن القسطنطينية ، فوزع السلطة بين ثلاث هيئات متنافسة وهى أولا: الوالى الذى ينوب عن السلطان فى حكم مصر ـ ثانياً : الديوان المؤلف من قواد جيش الاحتلال التركى ، ثالثاً : المماليك حكام مصر قبل الاحتلال ، أما الوالى فكان يلقب بالباشا ويقيم بالقلعة ، وكان من أهم واجباته تنفيذ أوامر السلطان وتبليغها لرجال الحكومة والشعب وكانت مدة ولايته لاتزيد على ثلاث سنوات

خشية أن يطمع فى الاستقلال وكان معظم الولاة لاهم لهم إلا جمع الضرائب وإرسالها إلى القسطنطينية ثم جمع المال لأنفسهم، وكثيراً ماقام النزاع بين الوالى والديوان أو بينه وبين المماليك ، وعند ذلك تصبح القاهرة مسرحا للفتنة والحروب والمعارك الدموية .

وكان الديوان يتألف من قواد جيش الاحتلال ، وكان يجتمع فى القلعة ومهمته مراقبة الوالى ومساعدته . وكان لجيش الاحتلال نفوذ كبير فى بادىء الأمر فكثيرا ما كان يثور ضد الوالى ويعزله أو يقتله حتى أصبح كثير من الولاة ألعوبة فى يده . وبمرور الزمن فقد هذا الجيش كثيراً من صفاته الحربية وركن رجاله إلى عيشة الكسل والخمول .

أما المماليك ويلقبون بالبكوات ، فهم بقايا المماليك الجراكسة الذين بقوا بمصر بعد موت السلطان طومان باى ، فعين منهم السلطان سليم حكاما للمديريات وكان عدد هذه المدريات أنذاك ٢٤ مديرية ، وأسند إليهم الوظائف الكبرى فى الحكومة . ومع أن عدد المماليك الذين بقوا بمصر فى العصر التركى كان لايزيد على عشرة الآف، إلا أنهم كانوا يؤلفون طبقة الأرستقراطية فى القاهرة ويعيشون عيشة بذخ وترف ويسكنون

القصور الفخمة المطلة على بركة الأزبكية وبركة الفيل ، ويلبسون الجوخ والحرير ويقتنون الجوارى ويشترون الغلمان ويدربونهم على ركوب الخيل والحرب والصيد ، ويعلمونهم مبادىء الدين الإسلامى وإذا كبر المملوك حرره سيده ورقاه إلى رتبة (بك) فى احتفال عظيم وجعله من أتباعه . وقدعظم نفوذ المماليك لسببين، الأول هو ضعف الدولة العثمانية منذ نهاية القرن السابع عشر والثانى هو كثرة تغير الولاة والنزاع الدائم بين الوالى والديوان حتى صار رئيس المماليك المسمى (شيخ البلد) الحاكم الحقيقى لمصر يعزل الوالى إذا أراد ، وذلك بأن يرسل إليه رسولا يسميه العامة (أبو طبق) لأنه كان يلبس فوق رأسه قبعة لها حافة واسعة تشبه الطبق ، ويدخل على الوالى فى القلعة فيحييه ويثنى طرف السجادة الجالس عليها ، ويتلو عليه أمر العزل بقوله (انزل يا باشا) وبذلك يصبح الوالى معزولا ويغادر البلاد .

وبعد أن وضع سليم الأول نظام الحكم فى البلاد نقل إلى القسطنطينية كل ما هو نفيس وغال ، نقل الأسلحة والكتب والمخطوطات النادرة ، كما جمع ما يقرب من ١٨٠٠ صانع من أمهر صناع القاهرة ، وبذلك حرمت البلاد من جهود هؤلاء الفنانين ، فأخذت فنون القاهرة فى التأخر بينما تقدمت فنون

استامبول وترعرعت ، كذلك أخذ سليم معه الخليفة العباسى (هو أحد سلالة الخلفاء العباسيين ، حضر إلى مصر بعد أن قضى التتار على الدولة العباسية فى بغداد سنة ١٢٤٨ م وبقى فى مصر يتمتع بلقب الخلافة هو وذريته من بعده دون أن يتولى شيئاً من الحكم) وجعله ينزل له عن لقب الخلافة ، فصارت الخلافة منذ ذلك الوقت عثمانية لا عباسية .

وفى صدر العصر العثمانى كانت القاهرة تزخر بالأسواق والوكالات والخانات والفنادق والحمامات التى تطلبتها حالة الرواج التجارى فى عصر المماليك حتى القرن السادس عشر الميلادى تاريخ اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ، وحتى بعد اكتشاف هذا الطريق لم تهجر بضائع البندقية وجنوا ومرسيليا أسواق القاهرة كما بقى جزء كبير من تجارة الهند والشرق بها . وكان عادة التجار أن يجتمعوا أمام حوانيتهم ويجلسوا فوق مقاعد خشبية عربية الطراز ، مزخرفة بطريقة الخرط والحشوات المجمعة والمطعمه بالعاج والصدف ويشربون النرجيلة والشبك (أشبه بفم السجاير) والقهوة ويعقدون صفقاتهم التجارية مشافهة . . وفى سنة ١٥٣٥ فقدت القاهرة كل ما كان يمكن أن تجنيه من مرور تجارة الهند بها وذلك عندما وافق السلطان سليمان الثانى على

منح فرنسا فرمان الامتيازات الأجنبية لحماية التجار الفرنج والمتاجر الفرنسية ، وذلك لأن هؤلاء التجار لم يكتفوا بحماية تجارتهم فحسب بل راحوا يفرضون إرادتهم على حكومة مصر ويتحكمون فى مرافقها العامة . وسرعان ما طلبت انجلترا ثم باقى البلاد الأوربية تطبيق هذا النظام على تجارهم ومتاجرهم حتى أصبحت هذه الامتيازات مع الزمن عقبة فى سبيل تقدم مصر الحديثة ، وبقيت كذلك إلى أن ألغيت فى مؤتمر مونترو سنة ١٩٣٧ .

أما حالة القاهرة من الناحية العمرانية فقد دخل الأتراك مصر فوجدوا عاصمتها تزدحم بالقصور والعمائر والمساجد والوكالات والمدارس والقلاع والحصون ، فكان من المنتظر أن يحافظوا عليها حتى تصبح درة فى جبين امبراطوريتهم ولكنهم أهملوها . ولم ينل قلب القاهرة تطورا أو تغيرا فقد ظل على ما هو عليه حتى أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يعكر صفو ساكنيه سوى معارك الجند والمماليك بين الفينة والفينة ، والظاهر أن حى باب اللوق لم يصبه ما أصاب الأحياء الأخرى من التخريب والدمار ، فقد كانت تحيط به من شماله جملة برك وفى جنوبه مدافن وفى شرقه مجموعة من المروج وبركة القرابين وكان

حى باب اللوق يشبه جزيرة مستطيلة معزولة عن المناطق القريبة منها ، أما حى بولاق فكان يوجد جنوبه مقابر ومزارع وعلى يساره يمتد الخليج الكبير ماراً بين بركتى السقايين وأبى شمعه ، وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ازدحم حى قناطر السباع (حى السيدة زينب) بالسكان وكان يحده الخليج من الغرب ردم ومكانه شارع الخليج (بور سعيد الآن) وبركة الفيل من الشرق ، كما استجدت منطقة بين بركة الفيل والقلعة هى حى ابن طولون ومركزها مسجد ابن طولون القائم على جبل يشكر . أما الجهات القريبة من القلعة وجامع السلطان حسن ، فقد اختفى سكانها الأغنياء بعد أن أفزعتهم حركات المشاغبين ، وتحولت المنازل إلى أحواش سكنها الرعاع أما أغنياء الحى فقد هجروه إلى حى بركة الفيل أو بركة الأزبكية اللتين أصبحتا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة .

وقد كثر فى العصر العثمانى بناء تكايا الدراويش والخانات والوكالات، كما شيد الأغنياء فى القرن السابع عشر والثامن عشر كثيراً من البيوت والقصور الأنيقة وجواسق النزهة على شاطىء النيل أو على الخليج المصرى ، ولا تزال بقايا تلك القصور قائمة فى القاهرة حتى اليوم . ففى حى الجمالية بيت الشيخ محمد أمين

السحيمى بالدرب الأصفر وهو يرجع إلى سنة ١٦٤٨م . وقصر المسافر خانة (ولد به الخديو إسماعيل) وقد بنى سنة ١٧٨٩ م بدرب المسمط . وفي حي الدرب الأحمر نجد بيت جمال الدين الذهبي بحارة حوش قدم (١٦٣٧م) وبيت زينب خاتون بعطفة الأزهرى وبحى السيدة زينب يوجد بيت إبراهيم كتخدا السنارى بحارة مونج بالسيدة زينب . وبحي طولون يوجد بيت الست الجردلية الملاصق لجامع ابن طولون .

الضواحى الجنوبية للقاهرة

حلوان[1] :

أنشأ عبد العزيز بن مروان والى مصر مدينة حلوان ٦٧ هـ (٦٨٦ م) أى قبل سنة ٧٠ هـ وهى السنة التى ظهر فيها الطاعون الذى من أجله اضطر عبد العزيز بن مروان أن يغادر الفسطاط ويقيم فى حلوان التى أنشأها قبل ذلك لراحته ونزهته . ويقول ياقوت فى معجم البلدان « إن حلوان قرية من أعمال مصر مشرفة على النيل من جهة الصعيد بينها وبين الفسطاط فرسخان » وأضاف « وكان أول من اختطها عبد العزيز بن مروان لما ولى مصر وضرب بها الدنانير وبنى بها دورا وقصورا واستوطنها وزرع بها بساتين وغرس فيها كروما ونخلا ، وقد اختار عبد العزيز ابن مروان المكان الذى أنشأ فيه حلوان لارتفاعها عن الفسطاط مع قربها منها وحسن موقعها من النيل وجودة هوائها . والظاهر أنه اختار لهذه القرية اسم حلوان لأن حالتها وموقعها يتفقان مع

(١) معجم البلدان ، المقريزى حـ ١ ص ٣٣٧ ، الولاة والقضاة ص ٤٩ ، أحسن التقاسيم .

حالة وموقع حلوان التى بالعراق من كل الوجوه . ويستفـاد مما ذكره المقريزى نقلا عن ابن عبد الحكم ، أنه كان يوجد بصحراء حلوان عيون ماء عذبة غير عيونها الكبريتية ، فقد قال ابن عبدالحكم :«وقد خرج عبد العزيز بن مروان من الفسطاط فنزل بحلوان داخل الصحراء فى موضع منها يقال له «أبوقرقورة» وهو رأس العين التى احتفرها عبد العزيز بن مروان وساق ماءها إلى نخيله الذى غرسه بحلوان سنة ٦٨٧ م ثم توجه إليها سنة ٧٠ هـ وكان معه جيشه وخفراؤه وبنى هناك جامعا وقصورا ومقياسا للنيل (وهذا المقياس أقدم من مقياس الروضة) ..

وجاء فى الخطط للمقريزى « أن عبد الله (المأمون) أمير المؤمنين لما قدم مصر أقام فى حلوان وقد سعدت حلوان طوال الحكم العربى وازداد عمرانها بإقامة الأمراء والأعيان فيها ، ثم أخذت بعد العصر المملوكى فى القرن (١٦ م) تتقهقر حتى تخربت قصورها ومساجدها وكنائسها فى سنة ١٧٤٦ حيث أزال شيخ البلد ما بقى فيها من معالم الحياة ، ويقول الجبرتى « إنه أحرقها سنة ١٧٨٦ م » أما الآن فانها قرية عادية مدفونة فى غابة من النخيل . .

وظلت حلوان قرية مهجورة ومتخربة حتى القرن التاسع عشر

عندما أوفدت بعثة طبية سنة ١٨٦٨ م لتحليل مياه العيون الكبريتية ومعرفة حالة الجو فى تلك المنطقة وقد تقرر بناء على نتيجة البحث إقامة مبنى بالقرب من الينبوع ، كما وضع تخطيط شامل للمدينة وشجع على إقامة المبانى والفنادق . وفى سنة ١٨٧٣ مد خط حديدى من المنشية بجوار القلعة إلى حلوان عن طريق قرية البساتين ، ومن ثم فقد أمها الناس بكثرة وازدحمت بسكانها وأنشئت بها المدارس ، وفى سنة ١٨٩٩ تم إنشاء حمامات حلوان . وتوالت يد الإصلاح والتعمير على حلوان حتى كانت سنة ١٩٣٩ حين أصدرت وزارة المالية قرارا بتجميل حلوان وحماماتها .

مرصد حلوان :

اشتهرت مصر منذ القدم بتضلع كهنتها فى علوم الفلك ، ومن الثابت أن كهنة جامعة عين شمس ، وهى أول جامعة عرفها العالم كانت لهم اليد الطولى فى رصد حركات الشمس والقمر والنجوم وتعرف تنقلاتها . ولما انتقل مركز الثقافة من جامعة عين شمس إلى جامعة الاسكندرية فى العصر البطلمى والرومانى والمسيحى ظل علم الفلك من أهم العلوم التى استغل بها علماء الاسكندرية . وفى العصر الإسلامى انتقل مركز الثقافة إلى الفسطاط

ثم العسكر ثم القطائع واستقر أخيراً فى القاهرة فى الجامعة الأزهرية . وظل علم الفلك من العلوم البارزة فى برامج الأزهر لعدة قرون . وفى العصر الحديث أنشىء مرصد بالقلعة سنة ١٨٣٨م ثم نقل إلى العباسية سنة ١٨٥٩ م وأقيم فى المبنى المعروف حتى الآن باسم الرصدخانة وقد تحول هذا المبنى إلى ديوان للقرعة ثم هجر أخيراً لتصدع مبانيه . وفى سنة ١٩٠٣ اتسعت الأعمال التى يقوم بها المرصد فاشتملت على الأرصاد الخاصة بالمغناطيسية الأرضية وغيرها ، ولما كانت هذه الأعمال تتطلب أن تكون أجهزتها بعيدة عن كل ما يؤثر عليها كالخطوة الحديدية وغيرها نقل المرصد من مكانه بالعباسية إلى مقره الحالى بحلوان .

طـــره

طره[1] .

قرية قديمة ذكر لها جوتيه فى قاموسه عدة أسماء فقال إن اسمها المصرى (Taraou) ومعنى ذلك (أرض المغارات المخيفة)

---

(١) القاموس الجغرافى ح ٣ ص ٢٥ ، معجم البلدان ، المقريزى ح١ ص ١١٥ .

أى المحاجر . ووردت فى ترجمة الأستاذ جولينشيف باسم (Daraou) وهى واقعة على الشاطىء الشرقى للنيل وهى شهيرة بمحاجرها التى تخرج الحجر الجيرى الأبيض الجميل . ثم حرف اليونان اسمها إلى (Troya) أو (Troy) ومن ذلك اسمها القبطى (Troyo) .

ووردت فى معجم البلدان (طرا) قرية فى شرقى النيل قريبة من الفسطاط من ناحية الصعيد . وفى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد طرا من الأعمال الاطفيحية . وكانت القرى الواقعة شرقى النيل جنوب الفسطاط (مصر القديمة) كلها تابعة لإقليم أطفيح الذى يعرف اليوم بمركز الصف . ووردت فى تاريخ سنة ١٨١٣ م برسمها الحالى ، أما مساكنها فقديمة وريفية . ويقال لطره اليوم طره البلد تمييزاً لها من قريتين أخريين فصلتا منها وهما طره الحجاره وطرة الأسمنت وهما مجاورتان لها .

وفى سنة ١٩٤١ عثرت مصلحة الآثار فى مغارة قديمة فى جبل طره على عدد من المخطوطات المكتوبة على أوراق البردى وهى تتضمن على تفسير للكتاب المقدس وترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادى . ولعل وجود هذه المخطوطات فى تلك المغارة يشير إلى الدير الذى أسسه القديس أرستيوس فى تلك

المغارات وعرف باسمه وقد عاش أرستيوس بين أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس[1] . وقد عرف هذا الدير باسم دير القصير ، ثم عرف بعد ذلك بدير البغل ، وفى سنة ٤٠٠ هـ أى القرن الحادى عشر الميلادى أمر الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى بهدم دير القصير ومع ذلك ظلت بعض أجزاء منه باقية حتى القرن الرابع عشر الميلادى حيث اندثرت تماما . وبلدة طره مشهورة الآن بوجود ليمان طره وورشه المختلفة بها وبما لمصلحة السجون هناك من محاجر وإدارات .

المعادى[2] :

القسم القديم من المعادى كان عبارة عن قرية قديمة عرفت باسم منية السودان . وقال الإدريسى : « من خرج من مصر يريد الصعيد سار من الفسطاط إلى منية السودان وهى منية جليلة تتصل بها عمارات بضروب من الفلات ، ثم قال وهى على الضفة الغربية من النيل » وقد علق محمد رمزى على ذلك بقوله : « والصواب أن منية السودان واقعة على الضفة الشرقية للنيل ، بدليل أن أبا صالح الأرمينى ذكر فى كتابه الديورة والكنائس

(١) أبو صالح الارمينى : الديوره والكنائس .
(٢) القاموس الجغرافى حـ ٣ ص ١٧ ، نزهة المشتاق .

أن دير العدوية واقع بأرض منية السودان ولا يزال هذا الدير واقعا على شاطىء النيل الشرقى بين المعادى وطره ويعرف بدير العدوية نسبة إلى سيدة مغربية تسمى العدوية وهى التى أنشأته وتسميه النصارى الآن كنيسة العذراء » .

وورد فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد « أن العدوية من أعمال الأطفحية (مركز الصف) » وفى معجم البلدان : « العدوية قرية ذات بساتين قرب مصر (مصر القديمة أو الفسطاط) على شرقى النيل تلقاء الصعيد » . وورد فى الانتصار لابن دقمان : « العدوية ضمن ضواحى القاهرة بين بركة الحبش (دير الطين) طرا » .

وفى العهد العثمانى ألغيت ناحية العدوية من عداد النواحى ذات الوحدة المالية وأضيف زمامها إلى أراضى ناحية البساتين وبذلك أصبحت العدوية من توابع ناحية البساتين . ومن ذلك العهد عرفت العدوية بين الجمهور باسم (معادى الخبيرى) حيث كان بها مرسى المراكب المخصصة لتعدية الناس والجند المتوجهين من وإلى مصر والقاهرة وبلاد الصعيد لأن النيل ضيق ويسهل اجتيازه . وكان يتولى رياسة تلك المعادى رجل يسمى الحاج على الخبيرى فنسبت إليه واشتهرت باسمه .

ومنذ سنة ١٨٦٠ عرفت العدوية فى الدفاتر الرسمية باسم « عزبة

برنجى الآى » لأنه كان يجاورها مبنى ثكنات الآلاى الأول من آلايات الجيش المصرى فى ذلك العهد ، وفى سنة ١٨٩٢ تقرر جعل (عزبة برنجى آلاى) ناحية إدارية قائمة بذاتها من الوجهة الإدارية لحفظ الأمن فى طريق حلوان مع بقائها تابعة لناحية البساتين من الوجهتين العقارية والمالية . أما القسم الحديث من المعادى فقد أنشأته شركة الدلتا سنة ١٩٠٨ بعد أن اشترت الأرض من الحكومة وفى سنة ١٩٣٠ اصبح اسم المعادى اسما رسمياً فى جدول وزارة الداخلية وفى جميع مصالح الحكومة ، وإن كانت لا تزال المعادى تابعة لناحية البساتين من الناحيتين المالية والعقارية ولمحافظة القاهرة فيما عدا ذلك .

أثر النبي (١) :

قرية صغيرة كانت تتبع مديرية الجيزة وهى على الشاطىء الشرقى للنيل ، وملاصقة لدير الطين . وقد أخذت القرية اسمها من وجود حجر أثرى قديم على هيئة قدم تزعم الناس أنه أثر قدم النبي عليه الصلاة والسلام . وقد أدخل هذا الحجر فى المسجد الذى أقامه الملك الظاهر بيبرس فى القرن الثالث عشر الميلادى وبنى قبة

---

(١) المقريزى : حـ ٤ ص ٢٩٥ ، القاموس الجغرافى حـ ٣ ص ٣ .

فوق هذا الأثر . وقد زينت القبة بالقاشانى وبها شبابيك مصنوعة من الجبس المفرغ والزجاج الملون المعروف باسم (القمريات أو الشمسيات) وأرضها مفروشة بالرخام . وقد رمم المسجد فى العصر العثمانى كما تثبت ذلك اللوحة الرخامية الموجودة به وهى باللغة التركية ومؤرخة سنة ١١٧٥ أى فى القرن الثامن عشر الميلادى كما رتبت له (الروزنامه) ألفا قرش سنويا لإقامة شعائره كما بنى تحته رصيف لدفع ماء النيل عن بنائه .

وكان يزرع بأثر النبى الذرة والقمح والشعير وقليل من القرطم وبها أرحيه (جمع رحى) تديرها الدواب وفى الجهة البحرية منها موردة ترسو فيها المراكب الواردة من الصعيد .

وبالقرية دير مشهور يعرف بدير الملاك وبهذا الدير بئر تعتقد النساء أن من وقفت عن الحمل واغتسلت فيها فإنها تحمل .

وفى تاريخ سنة ١٨١٣ ضمت الأراضى الزراعية الواقعة فى منطقة البستان المعشوق وبركة شطا وبركة الشعبية إلى بعضها وتكون منها زمام خاص باسم ناحية أثر النبي ، وبذلك أصبحت هذه القرية من ذلك التاريخ ناحية قائمة بذاتها من الناحيتين المالية والإدارية وهى الآن تتبع محافظة القاهرة ويسميها العامة أترالنبي بالتاء بدل الثاء .

الضواحي الشمالية للقاهرة

عين شمس والمطرية[1] :

ذكرت مدينة عين شمس فى التوراة باسم (أون) وكانت فى العصر الفرعونى عاصمة دينية وقاعدة من قواعد مقاطعات الوجه البحرى ومعنى كلمة (أون) مدينة الشمس فلما أتى البطالمة ترجموا هذا المعنى فجعلوا اسمها (هليوبوليس) على أن اسم (أون) ظل باقيا يطلقه الأقباط على المدينة حتى القرن السابع الميلادى أيام الفتح العربى . وكان بجوار المدينة عين ماء معروفة سماها العرب عين شمس فغلب اسمها على اسم المدينة وعرفت به . وقد نقل ابن سعيد عن كتاب « لذة الملمس فى حلى كورة عين شمس » أنها كانت فى قديم الزمان عظيمة الطول والعرض ، متصلة البناء بمدينة مصر حيث قامت مدينة الفسطاط ، ومعنى هذا أن مدينة عين شمس كانت إلى ماقبل الفتح العربى تمتد من موقعها الحالى جنوبا حتى حصن بابليون (بمصر القديمة) . ويقول بتلر فى كتابه فتح العرب لمصر ، إن المدينة عند مجىء العرب

(١) نزهة المشتاق ، معجم البلدان ، قوانين ابن مماتى .

لم يكن باقيا من مجدها القديم ـ إلا أسوار مهدمة وتماثيل لأبى الهول نصفهامدفون فى الأرض والمسلة المشهورة الباقية إلى اليوم عند قرية المطرية .

والآن يطلق اسم عين شمس على محطة عين شمس وعلى المساكن المجاورة لها الواقعة على السكة الحديدية فى شمال محطة المطرية .

والمطرية من المدن المصرية القديمة . وردت فى معجم البلدان لياقوت حيث قال :

« إنها من قرى مصر وبأرضها يزرع شجر البلسان يستخرج منه نوع من الدهن الطيب » ووردت المطرية فى التحفة السنية لابن الجيعان بأنها من ضواحى مصر . وذكرها المقريزى باسم منية مطر . ويقول محمد رمزى « إن المطرية هذه لا تزال موجودة فى الضواحى الشمالية الشرقية لمدينة القاهرة وبها محطة للسكة الحديدية الموصلة بين محطة كوبرى الليمون وبين قرية المرج .

وبناحية المطرية شجرة تعرف باسم شجرة العذراء ويقال إن السبب فى تسميتها بهذا الاسم أنه لما جاءت عائلة السيد المسيح أو العائلة المقدسة إلى مدينة (أون) بعد هروبها من حاكم

فلسطين الرومانى استراحت تحت ظل هذه الشجرة القديمة المورقة ، ومن ذلك الوقت عرفت باسم شجرة العذراء . وتضيف الأسطورة أن الطفل يسوع الناصرى (عيسى عليه السلام) جلس تحت هذه الشجرة وضرب الأرض بقدمه فانفجرت عين من المياه العذبة المنعشة فشربت مريم وطفلها ويوسف النجار وحمارهم حتى ارتووا ثم غسلت العذراء ملابس طفلها بمياه هذه العين ثم ألقت بالمياه المتخلفة على عصا يوسف التى كان قد غرسها فى الأرض فتحولت إلى شجرة البلسم المعروفة أيضاً باسم البلسان . ثم أينعت هذه الشجرة وفاحت منها رائحة زكية . ولما نمت زراعة البلسم وغدا عصيره ناجعاً لجميع الجروح وللأمراض الجلدية المستعصية أصبح البلسان موضع رعاية وعناية الناس والحكومة . وأيا كان نصيب هذه الأسطورة من الصحة فمما لا شك فيه أن ناحية المطرية كانت ولا تزال تشتهر بزراعة شجر البلسم . وفى العصر الإسلامى أحيط هذا الموضع بسور متين وتولت الشرطة حراسة مزرعة البلسان فى زمن الحصاد وأحيانا كان يعهد بهذه الحراسة إلى الأسرى المسيحيين . وكانت طريقة حصاد البلسان هى فصد فروع الشجرة وجمع السائل

المتخلف من هذا الفصد فى أوان فضية وتعمل هذه العملية فى وقت فيضان النيل .

• ومن الأساطير المأثورة عن ضاحية المطرية قولهم (أهل المطرية لا يخمر لهم خبز) وذلك نظراً لما أظهروه من البخل قبل العائلة المقدسة حين قصدت إلى هذا المكان جائعة .

مصر الجديدة (١) :

يستفاد مما جاء فى خطط المقريزى أن الريدانية اسم يطلق على بستان كبير أنشأه ريدان الصقلى أحد خدام العزيز بالله الخليفة الفاطمى ، وكان يحمل المظلة على رأس الخليفة . ثم اختص بالخليفة الحاكم بأمر الله بعد وفاة والده العزيز بالله إلى أن قتله الحاكم فى سنة ٣٩٣ ﻫ أى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى .
ويقول محمد رمزى « إنه لما كان بستان الريدانية يقع فى حدود الصحراء الواقعة فى شمال القاهرة وكان العمار ينتهى إليه فقد أطلق اسم الريدانية على البستان ، وعلى ما جاوره من الأرض الرملية الفضاء التى كانت تمتد فى ذلك الوقت ما بين المكان الذى فيه اليوم ميدان فاروق بباب الحسينية وبين الصحراء التى بها

(١) المقريزى ﺣ ٣ ص ٢٢٩ ، القاموس الجغرافى ﺣ ١ ص ١٧ .

الآن مدينة مصر الجديدة » . ويضيف ويؤيد ذلك جميع الوقائع والحوادث التي وقعت فى الريدانية منذ نهاية العصر المملوكى فقد حدثت فيها معركة حاسمة بين المماليك والسلطان سليم الأول سنة ١٥١٧م انتهت باحتلال العثمانيين لمصر وفى سنة ١٨٠٠م التقت فيها جيوش الحملة الفرنسية بقيادة (كليبر) مع جيش العثمانيين وانتهت بانتصار جيوش الحملة .

ويدخل فى حدود الريدانية الآن الوايلي والعباسية وثكنات الجيش الواقعة على جانبي شارع الخليفة المأمون ومنشية البكرى ومصر الجديدة .

وقد أنشئت مصر الجديدة سنة ١٩٠٦ ويطلق عليها أيضاً اسم هليوبوليس وهى تقع بالصحراء الشمالية الشرقية لمحافظة القاهرة — وكانت أرض مصر الجديدة ملكا للشركة البلجيكية التي يمتلكها البارون أمبان ، فقد اشترى ٦٠٠٠ فدان من الحكومة بواقع جنيه للفدان الواحد ثم زيدت المساحة إلى ١٢ ألف فدان ، وشرعت بعد ذلك فى تشييد العمائر بها على الطراز العربى ، وقد أممت أملاك الشركة البلجيكية الآن وأصبحت ملكا للدولة .

الخاتمة

لقد سرنا بك أيها القارىء الكريم فى مدينة القاهرة وطفنا بأحيائها وضواحيها وكان غرضنا من ذلك دراستها من الناحية الجغرافية والتاريخية والاجتماعية حتى تستطيع أن تتبين سر تلك المدينة التى نشأت وظلت طوال عصورها التاريخية عاصمة لمصر ، وحتى يمكنك أن تصل الحاضر بالماضى .

وعلى الرغم من قسوة الظروف التى مرت بها فى بعض الأحيان ـ وخاصة تلك الفترة ـ خضعت فيها للاستعمار العثمانى، ثم للاحتلال البريطانى البغيض ، فإن ذلك لم يؤثر عليها من الناحية العمرانية ، بل إن حضارتها التليدة ومدنيتها الزاهرة ، كانت تقف دائماً صخرة صلدة ضد كل الأحداث السياسية .

وقد قصدت من إطلاق اسم « القاهرة القديمة » أن أؤكد أن قاهرة العصور الوسطى هى قاهرة العصر الحديث ، لم تتغير معالمها الأصيلة ، بل إن الكثير من خططها وأحيائها ما زال يحتفظ باسمه ومكانته التى كان يتمتع بها منذ نشأته .

وحتى الأحياء ذات الأسماء الحديثة ، مثل جاردن سيتى ، والزمالك — فهى كما بينا — أحياء قديمة وإنما الحديث هو الاسم فقط . أما الضواحى الحالية فالكثير منها كان كذلك من ضواحيها فى العصور الوسطى . وحتى القليل منها التى لم تكن تابعة لها من الناحية الإدارية مثل حلوان ، كانت مدينة قديمة واحتفظت باسمها منذ نشأتها .

مراجع البحث

المراجع العربية :

١ — أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور (طبعة بولاق سنة ١٣١١ هـ) .
٢ — أبو العباس أحمد القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (القاهرة ١٩١٤) .
٣ — أنور زقلمه : المماليك فى مصر (مطبعة المجلة الجديدة سنة ١٩٣٠) .
٤ — تقى الدين أحمد بن على المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار — (مطبعة النيل سنة ١٣٢٤هـ).
٥ — جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بن بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (دار الكتب سنة ١٣٥٥ هـ) .
٦ — جورجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى (مطبعة الهلال سنة ١٩٠٢ م) .
٧ — زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين (مطبعة دار الكتب المصرية) .

٨ — عبد الرحمن زكي : القاهرة سنة ١٣٦٣ هـ .
٩ — على إبراهيم حسن: تاريخ جوهر الصقلى (مطبعة حجازى سنة ١٩٣٣).
١٠ — عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين السيوطى المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة سنة ١٣٢٧هـ) .
١١ — على باشا مبارك :الخطط التوفيقية (بولاق سنة ١٣٠٦هـ).
١٢ — عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية (سنة ١٩٣١) .
١٣ — محمد فريد أبو حديد : صلاح الدين الأيوبى وعصره (دار الكتب سنة ١٩٢٧) .
١٤ — فتح العرب لمصر تأليف بتلر (دار الكتب سنة ١٩٣٣).
١٥ — محمد رمزى : مقالات فى تاريخ القاهرة (مجلة العلوم ١٩٤٠ — ١٩٤٣).
١٦ — حسن عبد الوهاب تاريخ المساجد الأثرية (مطبعة دار الكتب سنة ١٩٤٦) .
١٧ — محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية (مطبعة وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٨ م) .

١٨ — محمد عبد الرحمن السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن (التاسع مكتبة القدسى سنة ١٣٥٥ هـ) .
١٩ — ابن حوقل : المسالك والمهالك .
٢٠ — المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .
٢١ — سليمان رصد الحنفي : كنز الجوهر (المطبعة الهندية سنة ١٣٢٠هـ) .
٢٢ — عبد الرحمن حسن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (طبع بولاق سنة ١٢٩٧ هـ) .
٢٣ — هرتس باشا ، تاريخ جامع السلطان حسن (طبع بولاق سنة ١٩٠٢ م)
٢٤ — إبراهيم بن محمد الشهير بابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار (بولاق سنة ١٩٠٢م) .
٢٥ — شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (الهند سنة ١٣٤٩ هـ) .
٢٦ — شهاب الدين أبى محمد المعروف بأبى شامه المقدسى الدمشقى : الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع (دار الكتب سنة ١٩٤٧ م) .

المراجع الأفرنجية

1. Abbate : Les origines du Caire (1880).
2. M. Briggs : Mohammedan Architecture in Egypt & Palestine (1927).
3. Pro. K.A.G. Gres well : Chronology of Muslim Monuments (1917).
4. : The Citadel of Cairo.
5. : The Foundation of Cairo (Bull. Faculty of Art‘. (1934)).
6. : The Muslim Architecture of Egypt (Oxford 1951).
7. J. Ebers : Egypt.
8 Hautecoeur et Wiet : Les Mosquées du Caire (1933).
9. Lamplough A. O : Cairo and its environs (London).
10. Poole S. Lane : The Story of Cairo (1962).
11. Robert Hay : Cairo (1884).
12. Description de l’Egypte : (Des observations et des Recherches qui on été faitet en Egypte pendant l’expedition de l’armées Francaise (Paris 1809 — 22).